

سِلسِلَة تَهْذِيبِ كُتُبِ الإمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة (٨)

تَهْذِيبُ الفَوَائِدِ

لِلإمَامِ العَلَّامَة شَمسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ المَعْرُوفِ بِابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

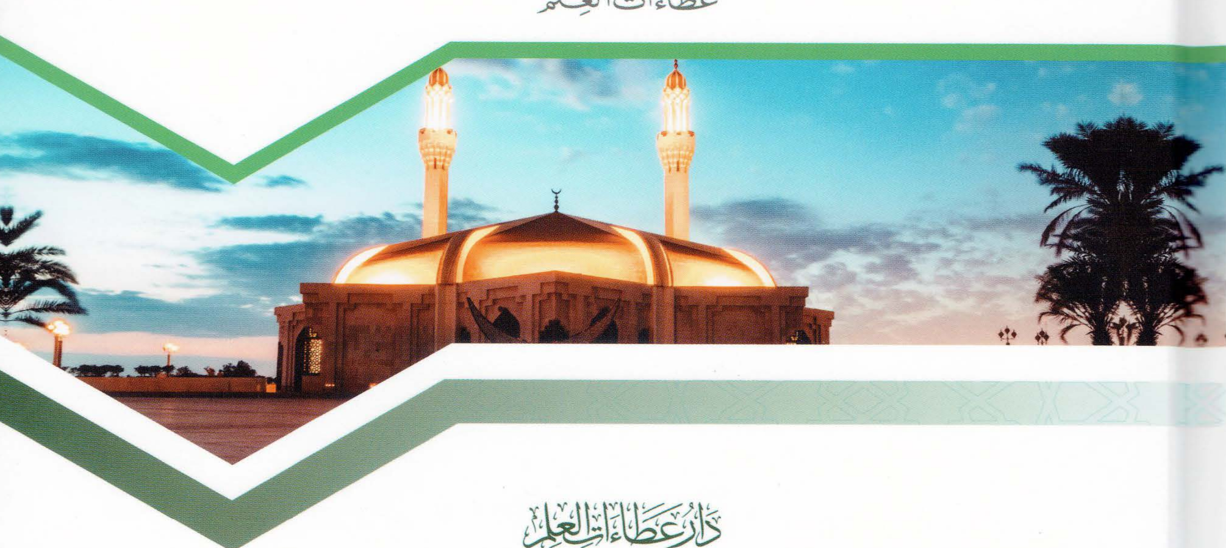
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

إعْدَادُ

د. سُلْطَان بْن نَاصِر النَّاصِر

إشْرَافُ

عَطَاءَات العِلْم



دَارُ عَطَاءَاتِ العِلْمِ


تهذيب
الفوائد

ح مؤسسة عطاءات العلم للنشر، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصر، سلطان بن ناصر

تهذيب الفوائد./ سلطان بن ناصر الناصر - ط١ . .- الرياض، ١٤٤٤هـ

١٧٥ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٧-٣٥-٨٣١٤-٦٠٣-٩٧٨

١- الروح ٢- الموت ٣- الجنة والنار أ- العنوان

ديوي ٢٤٣ ١٤٤٤/٤٠٢٠



info@ataat.com.sa

٠٠٩٦٦ ٥٥٩٢٢٢٥٤٣

@ataat11

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م

توزيع

دار الحضارة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

الرقم الموحد: 920000908

الفاكس: 011-2702719

0551523173

daralhadarah@hotmail.com

@daralhadarah

متجر دار الحضارة

daralhadarah.net



سِلْسِلَة تَهْذِيبِ كُتُبِ الإِمَامِ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة (٨)

تهذيب الفوائد

لِلإِمَامِ العَلَّامَة شَمْس الدِّين مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر المَعْرُوف بِابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة

(٦٩١-٧٥١هـ)

إِعْدَادُ

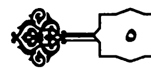
د. سُلْطَان بْن نَاصِر النَّاصِر

إِشْرَافُ

عَطَاءَات العِلْم




بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن **«عطاءات العلم»** بيت خبرة في تطوير البرامج العلمية الشرعية، ورعايتها، وتمكين العاملين فيها، وهي تسعىٰ إلىٰ الارتقاء بالجهات والبرامج العلمية الشرعية بطريقة منهجية، وصولًا لتحقيق مقاصد الشريعة، وترسيخ القيم الإسلامية.

لقد نهضت **«عطاءات العلم»** منذ تأسيسها بعدة مشاريع نوعية وفق منهجية احترافية، صممتها خصيصًا لصناعة المشاريع العلمية الشرعية، بين دراسات علمية محكّمة، ونصوص تراثية محققة، وبرامج تطويرية متخصصة، وموسوعات علمية إلكترونية متميزة، وسلسلة إصدارات كوكبة من الأئمة الأعلام، وغيرها من المشاريع والبرامج ذات الأثر العظيم والنفع العميم.

ولما كانت خدمة العلم الشرعي ونشره وتوريثه للأجيال المتعاقبة مما يجدر بأهل الإسلام الحرص عليه أولته **«عطاءات العلم»** عنايتها واهتمامها؛ فاحتضنت لأجله أحد مشروعاتها النوعية، وهو مشروع تحقيق آثار العلماء ونشرها، ومنها آثار الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وذلك بطباعتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا لائقًا؛ بتوفير أفضل نسخها الخطية في العالم، ومقابلة نصوصها، وتحريرها، والتعليق عليها بما يخدمها، ويوضّح مقاصدها، وكتابة مقدمات تعرّف بكل كتاب وتكشف مزاياه، وصُنْع فهارس كاشفة مفصلة لعلومه وخباياه، في عمل علمي مبارك ابتدأ

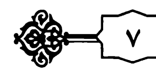
منتصف عام ١٤٢١هـ بإشراف الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، وتمويل مؤسسة الشيخ سليمان الراجحي الخيرية، واستمر نحو عشرين عامًا حتىٰ سنة ١٤٤١هـ، ونفع الله به من شاء من عباده في مختلف بلدان العالم.

وحين انتهىٰ العمل من نشر هذه الكتب العلمية النافعة باتت الحاجة ماسة إلىٰ تقريب عيون هذه الكتب، وتهذيبها، واختصارها بمنهج علمي محكم، يسهم في توسيع دائرة الاستفادة من علومها وفوائدها لعموم القراء، الذين قد يحول بينهم وبين الانتفاع بها استطراد المؤلف وإسهابه في تقرير المسائل، والرد علىٰ المخالفين، ونحو ذلك، كما يستفيد منها المتخصصون في العلوم الشرعية الراغبون في خلاصات جامعة لأفكار الكتب لغرض المراجعة والاستذكار.

ويطيب اليوم لـ«**عطاءات العلم**» أن تقدم لأهل العلم وطلابه والحريصين علىٰ تراثه هذا المشروع العلمي الجديد في تهذيب نخبة من مؤلفات الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، وهو مشروعٌ علمي مبارك نهض به فكرةً وإعدادًا فضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر (عضو المجلس الإشرافي لـ «**عطاءات العلم**»)، وتولت «**عطاءات العلم**» الإشراف عليه تتميمًا ومراجعةً وتوثيقًا وصفًّا وإخراجًا.

نسأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الإصدارات العلمية المهذبة كما نفع بأصولها، وأن يبارك فيها وينفع بها الأمة، ويجزل الأجر، ويعظم المثوبة للشيخ سليمان بن عبد العزيز الراجحي ومؤسسته الخيرية علىٰ رعايتها المباركة التي أثمرت هذا المشروع وأصله، ولفضيلة الشيخ الدكتور سلطان بن ناصر الناصر وجميع المشاركين فيه، ويجعله من العلم النافع الذي يستمر ثوابه ولا ينقطع. والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

عَطَاءَات العِلْم



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، ومن تبع هداهم واقتفىٰ سننهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فإن الإمام الحافظ أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية»، المولود سنة ٦٩١، والمتوفىٰ سنة ٧٥١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أعلىٰ أهل العلم مرتبة في جودة التصنيف وكثرة التأليف، وقد أسبغ الله علىٰ كتبه من النضارة وجمال العبارة ما بهر عقول العلماء؛ لما فيها من استقصاء أصول المسائل وآثارها، وإبراز مقاصد الشريعة وأسرارها، فصار لها من القبول والانتشار والأثر ما هو لائق بتلك العلوم والفوائد والدرر.

ولما كانت مؤلفات هذا الإمام الجليل زاخرة بالتحقيقات العلمية والتجليات الإيمانية التي تعظم حاجة الناس إلىٰ مداومة النظر فيها علىٰ اختلاف مستوياتهم المعرفية، فضلًا عن طلاب العلوم الشرعية، والتي قد يحول دون قراءتها ورودُها بين أمواج بحر تقريراته وردوده ذات النفس الطويل؛ ظهرت الحاجة لتقريب مصنفاته بتقديم تهذيبات علمية مركزة لمباحثها وأفكارها، دون ما فيها من الاستطرادات التي لا تكون محل اهتمام لدىٰ غير المختصين بموضوعاتها، فجاء هذا العمل محققًا لتلك الغاية الشريفة، خدمةً لعموم المسلمين وخاصتهم، سواء منهم من لم يتسنَّ له قراءة الأصل، ومن أراد تكرار النظر في زبدة ذلك الأصل،

وجاريًا علىٰ طريقة أهل العلم في اختصار التصانيف وتهذيبها، وذلك من أغراض التأليف ومقاصده المشهورة، كما عبَّر عنه ابن خلدون في مقدمته بقوله: «أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولًا مسهبًا؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر إن وقع».

وقد جرى العمل في التهذيب وفق منهج يتلخص فيما يأتي:

١- إثبات ألفاظ المؤلف بدون تصرف فيها، ولا زيادة عليها.

٢- المحافظة علىٰ ترتيب ورود النصوص في الأصل بدون تقديم أو تأخير.

٣- الاقتصار علىٰ صلب الفكرة المقصودة، وحذف الاستطرادات، مع الحرص علىٰ إظهار السياق علىٰ نحوٍ متسق.

٤- الاختصار في عرض الأقوال والأدلة والنقاشات والتعريفات ونحوها.

٥- إثبات جميع عناوين الأبواب والفصول، ولو كان المحذوف فيها كثيرًا.

٦- إبراز بعض الفوائد والعبارات الصالحة للانتقاء والاقتباس، وذلك بتحبيرها باللون الأحمر.

٧- وضع قائمة في آخر التهذيب بالفوائد والعبارات المنتقاة التي وردت في الأصل، ولم تثبت في التهذيب؛ نظرًا لعدم ملاءمتها للسياق؛ لورودها في نصٍّ لم يطابق شرط التهذيب.

٨- الاعتماد علىٰ النص المحقق في الإصدارات العلمية المتقنة التي تولت نشرها والإشراف عليها «عطاءات العلم».

وقد تكرمت «عطاءات العلم» جزاها الله خيرًا بخدمة التهذيب بما يأتي:

١- تخريج الأحاديث تخريجًا مختصرًا من حواشي الأصل.

٢- شرح الألفاظ الغريبة شرحًا مختصرًا مستفادًا من حواشي الأصل.

٣- وضع عناوين جانبية للموضوعات في بداية الفصول.

٤- وضع أرقام صفحات الأصل علىٰ هامش الصفحات الأيمن والأيسر.

٥- وضع فهرس للفوائد والعبارات الصالحة للاقتباس في نص التهذيب أو النصوص المحذوفة من الأصول.

٦- وضع فهرس مفصل للكتاب.

٧- مراجعة التهذيب وتحكيمه علميًّا.

٨- التجهيز للطباعة.

وأجزل الشكر وأوفاه للمؤسسة العلمية الرائدة «**عطاءات العلم**» لجهودها في خدمة هذا المشروع، ولكل من أسهم في إنجازه بسهم، تحقيقًا لأصوله، ومراجعة لنصوصه، وتنسيقًا لها وإخراجًا، تقبل الله من الجميع أعمالهم، وبارك فيها، وجعلها خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

وكتب

د. سُلطَان بن نَاصِر النَّاصِر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قاعدة جليلة

ص: ٣

جمع القلب عند تلاوة القرآن وسماعه

إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن فاجمعْ قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعَك، واحضُرْ حُضورَ من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك علىٰ لسان رسوله:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وذلك أنَّ تمام التأثير لمَّا كان موقوفًا علىٰ مُؤثِّرٍ مُقْتَضٍ، ومحلٍّ قابل، وشرطٍ لحصول الأثرِ، وانتفاء المانع الذي يمنعُ منه، تضمَّنَتِ الآيةُ بيانَ ذلك كلِّه بأوجز لفظٍ وأبينِهِ وأدلِّه علىٰ المُراد.

فقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّمَ من أول السورةِ إلىٰ ها هنا، وهذا هو المؤثِّرُ.

وقولُه: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: فهذا هو المحلُّ القابلُ، والمرادُ به القلبُ الحيُّ الذي يَعْقِلُ عن الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]؛ أي: حيَّ القلبِ.

وقوله: ﴿قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، أي: وجَّه سمعَه وأصغَىٰ حاسَّةَ سمعِهِ إلىٰ ما يُقال له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي: شاهدُ القلبِ حاضرٌ غيرُ غائبٍ. قال ابن قتيبة: استمعَ كتاب الله، وهو شاهدُ القلب والفهم، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ. وهو إشارةٌ إلىٰ المانع من حصول التأثير، وهو سهوُ القلب وغيبتُه عن تعقُّلِ ما يُقال له والنظرِ فيه وتأمُّلِه.

فإذا حصل المؤثِّرُ وهو القرآنُ، والمحلُّ القابلُ وهو القلبُ الحيُّ، ووُجِد الشرطُ وهو الإصغاءُ، وانتفىٰ المانعُ وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُه عن معنىٰ الخطاب وانصرافُه عنه إلىٰ شيءٍ آخر؛ حَصَل الأثرُ وهو الانتفاعُ والتذكُّرُ.

فإن قيل: إذا كان التأثيرُ إنَّما يتمُّ بمجموع هذه؛ فما وجهُ دخول أداة (أو) في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ والموضع موضعُ واو الجمع لا موضعُ (أو) التي هي لأحد الشيئين؟

قيل: هذا سؤالٌ جيدٌ، والجوابُ عنه أن يُقال: خُرِّج الكلام بـ (أو) باعتبار حال المخاطب المدعوِّ:

فإنَّ من الناس من يكون حيَّ القلب، واعِيَهُ، تامَّ الفطرة؛ فإذا فكَّر بقلبه، وجال بفكرِه؛ دلَّه قلبُه وعقلُه علىٰ صحة القرآن، وأنَّه الحقُّ، وشهد قلبه بما أخبر به القرآنُ، فكان ورودُ القرآنِ علىٰ قلبه نورًا علىٰ نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

ومن الناس من لا يكونُ تامَّ الاستعداد، واعيَ القلبِ، كاملَ الحياةِ، فيحتاجُ إلىٰ شاهدٍ يُميِّزُ له بين الحقِّ والباطل، ولم تبلُغْ حياةُ قلبه ونورُهُ وزكاءُ فطرته مبلغَ صاحب القلب الحي الواعي؛ فطريقُ حصولِ هدايته: أن يُفرِّغَ سمعَهُ للكلام، وقَلْبَهُ لتأمُّلِهِ والتفكُّرِ فيه وتعقُّلِ معانيه، فيعلم حينئذٍ أنَّه الحقُّ.

فصل

ص: ٥
اشتمال سورة ق على أصول الإيمان

وقد جمعتْ هذه السورةُ من أصول الإيمان ما يكفي ويشْفي ويُغْني عن كلام أهل الكلام ومعقولِ أهل المعقول؛ فإنَّها تضمَّنَتْ تقريرَ المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوةِ والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلىٰ هالكٍ شقيٍّ وفائزٍ سعيدٍ، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمَّنتْ إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يُضَادُّ كماله من النقائص والعيوب، وذكر فيها القيامتينِ الصُّغرىٰ والكبرىٰ، والعالمَين: الأكبرَ -وهو عالمُ الآخرةِ- والأصغر -وهو عالمُ الدُّنيا-، وذَكَر فيها خلْقَ الإنسان ووفاتَهُ وإعادتَهُ، وحالهُ عند وفاتِهِ ويوم معادِهِ، وإحاطتَهُ سبحانه به من كلِّ وجهٍ، حتىٰ عِلْمَهُ بوساوسِ نفسه، وإقامة الحفظة عليه يُحصُون عليه كلَّ لفظةٍ يتكلَّم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائقٌ يسوقُه إليه وشاهدٌ يشهدُ عليه؛ فإذا أحضره السائقُ؛ قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]؛ أي: هذا الذي أُمِرْتُ بإحضارِهِ قد أحضرتُه، فيقالُ عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]؛ كما يُحْضَرُ الجاني إلىٰ حضرةِ السُّلطانِ، فيقالُ: هذا فلانٌ قد أحضرتُهُ. فيقولُ: اذهَبوا به إلىٰ السجنِ وعاقبوهُ بما يستحقُّه!

وتأملْ كيف دلَّتِ السورةُ صريحًا علىٰ أن الله سبحانه يعيدُ هذا الجسد بعينِهِ الذي أطاعَ وعَصىٰ، فيُنَعِّمُهُ ويُعذِّبُهُ، كما يُنعِّمُ الرُّوحَ التي آمنتْ بعينها ويُعذِّبُ التي كَفَرتْ بعينها، وهو سبحانَه يُقرِّرُ المعادَ بذِكْرِ كمالِ علمِهِ وكمالِ قُدرتِهِ وكمالِ حكمتِهِ.

والصوابُ أنَّ المعاد معلومٌ بالعقل مع الشرع، وأن كمالَ الربِّ تعالىٰ وكمال أسمائه وصفاته تَقتضِيهِ وتُوجِبُهُ، وأنَّه مُنزَّهٌ عما يقولُه مُنكِروه كما يُنَزَّهُ كمالُه عن سائر العيوبِ والنقائص.

ثم أخبر سبحانَه أنَّ المُنكِرين لذلك لما كذَّبوا بالحقِّ اختلط عليهم أمرُهم؛ ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] مختلطٍ لا يَحصُلونَ منه علىٰ شيءٍ.

ثم دعاهم إلىٰ النظرِ في العالم العُلْويِّ وبنائِهِ وارتفاعِهِ واستوائِهِ وحُسْنِه والتئامِهِ.

ثم إلىٰ العالم السُّفْلِيِّ، وهو الأرضُ، وكيف بَسَطَها وهيَّأها بالبسط لِما يُرادُ منها، وثبَّتَها بالجبال، وأودعَ فيها المنافع، وأنبتَ فيها من كلِّ صنفٍ حسنٍ من أصنافِ النباتِ علىٰ اختلاف أشكالِهِ وألوانِهِ ومقاديرِهِ ومنافعِهِ وصفاتِهِ. وأنَّ ذلك تَبْصِرةٌ؛ إذا تأمَّلها العبدُ المُنيبُ وتَبصَّرَ بها تَذَكَّرَ ما دلَّت عليه مما أخبرتْ به الرسلُ من التوحيدِ والمعادِ؛ فالناظرُ فيها يَتبصَّرُ أولًا، ثم يَتذكَّرُ ثانيًا. وأنَّ هذا لا يَحصُلُ إلا لعبدٍ منيبٍ إلىٰ الله بقلبِهِ وجوارحِهِ.

ثم دعاهم إلىٰ التفكُّر في مادةِ أَرْزاقِهِم وأقواتِهِم ومَلابِسِهم ومَراكِبِهم وجَنَّاتِهِم، وهو الماءُ الذي أنزلَه من السماءِ وباركَ فيه، حتىٰ أَنْبَتَ به جَناتٍ مختلفةَ الثمارِ والفواكهِ ما بين أبيضَ وأسودَ وأحمرَ وأصفرَ وحلوٍ وحامضٍ وبَيْنَ ذلك، مع اختلافِ منافِعِها وتنوُّعُ أجناسِها، وأنْبَتَ به الحبوبَ كلَّها علىٰ تَنوُّعِها واختلافِ مَنافِعهَا وصفاتِها وأشكالها ومقاديرها، ثم أفردَ النخلَ لما فيه من موضع العبرةِ والدِّلالةِ التي لا تَخفىٰ علىٰ المتأمِّل، وأَحيا به الأرض بَعْدَ مَوْتِها.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ أي: مثلُ هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمارَ والأقوات والحبوبَ خروجُكُم من الأرض بعد ما غُيِّبْتُم فيها.

ثم انتقلَ سبحانه إلىٰ تقرير النبوَّةِ بأحسنِ تقريرٍ وأوجزِ لفظٍ وأبعدِهِ عن كلِّ شُبهةٍ وشكٍّ، فأخبر أنه أرسل إلىٰ قوم نوح وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ وقوم فرعونَ رُسلًا فكذَّبوهم، فأهلكَهُم بأنواع الهلاك، وصَدَّقَ فيهم وعيدَه الذي أوْعَدَتْهم به رُسُلُهُ إن لم يؤمنوا، وهذا تقريرٌ لنبوَّتِهِم ولنبوَّةِ مَن أخبرَ بذلك عنهم من غير أن يتعلَّم ذلك من مُعلِّمٍ ولا قرأهُ في كتابٍ، بل أخبر به إخبارًا مفصَّلًا مطابقًا لما عند أهل الكتابِ.

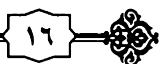
ثم عاد سبحانه إلىٰ تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]؛ يُقالُ لكلِّ من عجز عن شيءٍ: عَيِيَ به، وعَيِيَ فلانٌ بهذا الأمرِ.

ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. قال ابن عباس: يريدُ: أفَعَجَزْنا؟ وكذلك قال مقاتلٌ.

قلت: هذا تفسيرٌ بلازم اللفظة، وحقيقتُها أعمُّ من ذلك؛ فإنَّ العرب تقولُ: أعياني أن أَعرِف كذا وعَيِيْتُ به: إذا لم تَهْتَدِ لوجهِهِ ولم تقْدِرْ علىٰ معرفته وتحصيله، فتقولُ: أعياني دواؤك: إذا لم تهتدِ له ولم تقفْ عليه، ولازم هذا المعنىٰ العجزُ عنه.

ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]؛ أي: أنهم التبس عليهم إعادةُ الخلق خلقًا جديدًا.

ثم نبَّههم علىٰ ما هو من أعظم آيات قدرته وشَواهدِ ربُوبيَّتِهِ وأدلَّة المعادِ، وهو خَلْقُ الإنسانِ؛ فإنَّه من أعظم الأدلة علىٰ التوحيد والمعاد، ثم أخبرَ سبحانَه عن



إحاطةِ علمِهِ به، حتىٰ عَلِمَ وساوسَ نفسِهِ.

ثم أخبرَ عن قربِهِ إليه بالعلم والإحاطةِ، وأنَّ ذلك أدنىٰ إليه من العِرْقِ الذي هو داخلَ بدنِهِ؛ فهو أقربُ إليه بالقدرةِ عليه والعلم به من ذلك العِرقِ. وقال شيخُنا: المرادُ بقوله: ﴿نَحْنُ﴾؛ أي: ملائكتُنا؛ كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ أي: إذا قرأه عليك رسولُنا جبريلُ. قال: ويدلُّ عليه قولُه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧]؛ فقُيِّدَ القربُ المذكورُ بتلقِّي المَلَكَيْنِ، ولو كان المرادُ به قربَ الذاتِ لم يَتَقَيَّدْ بوقتِ تلقِّي الملكين؛ فلا حجَّةَ في الآيةِ لِحُلوليٍّ ولا مُعطِّلٍ.

ثم أخبر سبحانه أنَّ علىٰ يمينِه وشمالِهِ مَلَكين يكتُبانِ أعمالَه وأقوالَه، ونبَّه بإحصاءِ الأقوال وكتابتِها علىٰ كتابة الأعمال، التي هي أقلُّ وقوعًا وأعظمُ أثرًا من الأقوال، وهي غاياتُ الأقوال ونهايتُها.

ثم أخبر عن القيامةِ الصغرىٰ، وهي سَكْرَةُ الموتِ، وأنها تجيءُ بالحقِّ، وهو: لقاؤُه سبحانَه، والقدومُ عليه، وعَرْضُ الرُّوح عليهِ، والثوابُ والعقابُ الذي تعجَّلَ لها قبلَ القيامة الكبرىٰ.

ثم ذكر القيامة الكبرىٰ بقولهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

ثم أخبرَ عن أحوال الخَلْقِ في هذا اليوم، وأنَّ كل أحدٍ يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائقٌ يَسوقُه وشهيدٌ يَشهدُ عليه، وهذا غير شهادةِ جوارحِهِ، وغيرُ شهادةِ الأرض التي كان عليها له وعليه، وغيرُ شهادةِ رسولِهِ والمؤمنين.

ثم أخبر أنَّ غطاءَ الغفلة والذُّهول يُكْشَفُ عنه ذلك اليوم كما يُكْشَفُ غطاءُ النوم عن القلب فيستيقظُ وعن العين فتنفتحُ؛ فنسبةُ كَشْفِ هذا الغطاءِ عن العبدِ عند

المعاينةِ كنسبةِ كَشْفِ غطاءِ النوم عنه عند الانتباهِ.

ثم أخبر سبحانه أنَّ قرينَه -وهو الذي قُرِنَ به في الدُّنيا من الملائكةِ يَكْتُبُ عَمَلَه وقولَه- يقولُ لمَّا يُحْضِرُهُ: هذا الذي كنتَ وَكَلْتَني به في الدُّنيا قد أحضرتُه وأتيتكَ به. هذا قول مجاهدٍ.

وقال ابنُ قُتيبة: المعنىٰ: هذا ما كتبتُهُ عليه وأحصيتُهُ من قولِهِ وعملِهِ حاضرٌ عندي.

والتحقيقُ أن الآية تتضمَّنُ الأمرين؛ أي: هذا الشخص الذي وُكِلْتُ به، وهذا عَملُهُ الذي أحصيتُهُ عليه.

فيَختصِمُ هو وقرينهُ من الشياطين، ويُحِيلُ الأمرَ عليه، وأنه هو الذي أَطغاه وأَضلَّهُ، فيقولُ قرينُه: لم يكن لي قُوةٌ أن أُضِلَّهُ وأُطْغِيَهُ، ولكن كان في ضلال بعيدٍ؛ اختاره لنفسهِ، وآثَرَهُ علىٰ الحقِّ؛ كما قال إبليسُ لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وعلىٰ هذا؛ فالقرينُ هنا هو شيطانُه؛ يَختصمان عند الله.

وقالت طائفةٌ: بل قرينُه ها هنا هو المَلَكُ، فيدَّعي عليهِ أنَّه زاد عليه فيما كَتَبَهُ عليه وطَغَىٰ، وأنَّه لم يَفْعَلْ ذلك كلَّه، وأنه أعْجَلَهُ بالكتابةِ عن التوبة، ولم يُمْهِلْهُ حتىٰ يتوبَ! فيقولُ المَلَكُ: ما زِدتُ في الكتابةِ علىٰ ما عَمِلَ، ولا أَعجَلْتُه عن التوبة، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

ثم أخبر سبحانه أنه لا يُبدَّلُ القولُ لديه، فقيلَ: المرادُ بذلك: قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ووَعْدُه لأهل الإيمان بالجنة، وأنَّ هذا

لا يُبدَّلُ ولا يُخْلفُ.

وفيها قولٌ آخرُ: أن المعنىٰ: ما يُغيَّرُ القولُ عندي بالكذبِ والتلبيسِ كما يُغيَّرُ عند الملوكِ والحُكَّام، فيكون المرادُ بالقول قولَ المختصمين.

ثم أخبرَ عن سَعَةِ جهنَّمَ، وأنها كلَّما أُلقِيَ فيها ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي؛ أي: ليس فيَّ مزيدٌ. والحديثُ الصحيحُ يَرُدُّ هذا التأويل[1].

ثم أخبر عن تقريب الجنَّة من المتَّقينَ، وأنَّ أهلَها هم الذين اتَّصفوا بهذه الصفاتِ الأربع:

إحداها: أن يكون أوَّابًا؛ أي: رَجَّاعًا إلىٰ الله؛ من معصيتِهِ إلىٰ طاعتِهِ، ومن الغفلةِ عنه إلىٰ ذِكْرِهِ.

الثانية: أن يكون حفيظًا، قال ابنُ عباس: لِمَا ائتَمَنَهُ الله عليه وافترَضَهُ. وقال قتادةُ: حافظٌ لِما استَوْدَعَهُ الله من حقه ونعمته.

الثالثةُ: قولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]: يَتضمَّنُ الإقرار بوجودِهِ وربوبيتِهِ وقدرتهِ وعلمِهِ واطلاعِهِ علىٰ تفاصيلِ أحوالِ العبدِ، ويَتضمَّنُ الإقرار بكتبِهِ ورسلِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ، ويَتضمَّنُ الإقرار بوَعْدِهِ ووَعيدِهِ ولِقائِهِ؛ فلا تَصِحُّ خشيةُ الرحمن بالغيبِ إلَّا بعد هذا كلِّه.

---

(١) يشير إلىٰ ما رواه البخاري (٤٨٤٨) ومسلم (٢٨٤٨) عن أنس مرفوعًا: «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتىٰ يضع فيها ربّ العزة تبارك وتعالىٰ قدمه، فتقول: قط قط**». ونحوه عند البخاري (٤٥٦٨) عن أبي هريرة.

الرابعةُ: قولُه: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]: قال ابنُ عباس: راجعٌ عن معاصي الله مُقبِلٌ علىٰ طاعةِ الله. وحقيقةُ الإنابةِ عُكوفُ القلبِ علىٰ طاعةِ الله ومحبَّتِهِ والإقبالِ عليه.

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامتْ به هذه الأوصافُ بقوله: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٤ - ٣٥].

ثم خَوَّفهم بأن يُصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبْلَهم، وأنَّهم كانوا أشدَّ منهم بَطْشًا ولم يَدْفَعْ عنهم الهلاك شدةُ بطشِهم، وأنَّهم عند الهلاكِ تقلَّبوا وطافوا في البلاد، هل يَجِدون مَحِيصًا ومَنجًىٰ من عذاب الله؟!

ثم أخبر سبحانَه أنَّ في هذا الذي ذُكِرَ ذِكرىٰ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧].

ثم أخبر أنَّه خَلَقَ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يَمَسَّهُ من تَعَبٍ ولا إعياءٍ؛ تكذيبًا لأعدائِهِ من اليهودِ؛ حيثُ قالوا: إنه استراح في اليوم السابع!!

ثم أمرَ نبيَّهُ بالتأسِّي به سبحانَه في الصبرِ علىٰ ما يقولُ أعداؤُه فيه؛ كما أنَّه سبحانه صبرَ علىٰ قول اليهود: إنَّه استراح! ولا أحدَ أصْبرُ علىٰ أذًىٰ يَسْمَعُهُ منه[1].

ثم أمَرَهُ بما يَستعينُ به علىٰ الصبر، وهو التسبيحُ بحمدِ ربِّه قبلَ طلوع الشمس وقبلَ غروبِها وبالليل وأدبارَ السُّجود: فقيل: هو الوِتْرُ. وقيل: الركعتان بعد المغرب. **والأولُ** قولُ ابن عباس، **والثاني** قولُ عمر وعليٍّ وأبي هريرة والحسن بن عليٍّ وإحدىٰ الروايتينِ عن ابن عباس. وعن ابن عباس **روايةٌ ثالثةٌ**: أنَّه التسبيحُ

---

(١) لفظ حديث أخرجه البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤).

باللسانِ أدبارَ الصَّلَواتِ المكتوبات.

ثم ختَمَ السورة بذكر المعاد، ونداءِ المنادي برجوع الأرواح إلىٰ أجسادها للحشر، وأخبرَ أنَّ هذا النداء من مكانٍ قريبٍ يَسمعُه كلُّ أحدٍ، ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق: ٤٢]: بالبعث ولقاء الله، ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ كما تَتشقَّقُ عن النباتِ، فيَخرُجونَ ﴿سِرَاعٗا﴾ من غير مُهلةٍ ولا بُطءٍ، ذلك حشرٌ يَسيرٌ عليه سبحانَه.

ثم أخبر سبحانه أنَّه عالمٌ بما يقولُ أعداؤه، وذلك يَتضمَّنُ مُجازاتَهُ لهم بقولِهِم إذ لم يخْفَ عليه، وهو سبحانَه يذكُر علمَه وقدرتَه لتحقيقِ الجزاءِ.

ثم أخبره أنَّه ليس بمسلَّطٍ عليهم ولا قهَّارٍ ولم يُبْعَثْ لِيُجْبِرَهُم علىٰ الإسلام ويُكْرِهَهُم عليه، وأمَرَهُ أن يُذَكِّرَ بكلامِهِ مَنْ يَخافُ وعيدَه؛ فهو الذي ينتفعُ بالتذكير، وأما مَنْ لا يؤمنُ بلقائِهِ ولا يخافُ وعيدَه ولا يرجو ثوابَه؛ فلا ينتفع بالتذكير.

ص: ٢٠

فائدة

مغفرة الله لأهل بدر

قول النبيِّ ﷺ لعمرَ: «**وما يُدْرِيك أنَّ الله اطَّلَعَ علىٰ أهْلِ بَدْرٍ، فقالَ: اعْمَلُوا ما شئْتُم؛ فقدْ غَفَرْتُ لكُم؟!**»[1] أشْكَلَ علىٰ كثيرٍ من الناس معناهُ؛ فإنَّ ظاهرَه إباحةُ كلِّ الأعمال لهم وتخييرُهم فيما شاؤوا منها، وذلك ممتنعٌ.

فقالتْ طائفةٌ منهم ابن الجوزيِّ: ليس المرادُ من قولِهِ: «**اعْمَلوا**»: الاستقبال، وإنَّما هو للماضي، وتقديرُهُ: أيُّ عمل كان لكم؛ فقد غفرتُهُ. قال: ويَدُلُّ علىٰ ذلك شيئانِ: أحدُهما: أنَّه لو كان للمستقبل؛ كان جوابُهُ قولَه: سأَغْفِر لكم. **والثاني**: أنه كان يكونُ إطلاقًا في الذُّنوبِ، ولا وجه لذلك.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤).

وحقيقةُ هذا الجوابِ: أني قد غَفرتُ لكم بهذه الغزوةِ ما سلف من ذُنوبكم.

لكنه ضعيفٌ من وجهين:

أحدُهما: أنَّ لفظ «**اعملوا**» يأباه؛ فإنه للاستقبال دون المُضِيِّ. وقولُه: «**قَدْ غَفَرْتُ لكُم**» لا يُوجِبُ أن يكون «**اعملوا**» مثلَه؛ فإنَّ قوله: «**قَدْ غَفَرْتُ**» تحقيقٌ لوقوع المغفَرةِ في المستقبل؛ كقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ونظائره.

الثاني: أن نفسَ الحديثِ يَرُدُّه؛ فإنَّ سببَه قصةُ حاطبٍ وجَسُّه علىٰ النبيِّ ﷺ، وذلك ذنبٌ واقعٌ بعد غزوةِ بدرٍ لا قبلَها، وهو سببُ الحديث؛ فهو مرادٌ منه قطعًا.

فالذي نظنُّ في ذلك -والله أعلمُ- أنَّ هذا خطابٌ لقوم قد عَلِمَ الله سبحانه أنَّهم لا يفارقون دينهم، بل يموتون علىٰ الإسلام، وأنَّهم قد يُقارِفونَ بعضَ ما يُقارِفُهُ غيرُهم من الذُّنوب، ولكن لا يَترُكُهم سبحانه مُصرِّين عليها، بل يُوفِّقُهم لتوبةٍ نَصوحٍ واستغفارٍ وحسنات تمحو أثرَ ذلك، ويكونُ تخصيصُهم بهذا دون غيرهم، لأنَّه قد تَحقَّق ذلك فيهم وأنهم مغفورٌ لهم، ولا يمنعُ ذلك كونَ المغفرةِ حصلتْ بأسبابٍ تقومُ بهم؛ كما لا يقتضي ذلك أن يُعطِّلوا الفرائض وثوقًا بالمغفرة.

ونظيرُ هذا قولُه في الحديث الآخر: «**أَذْنَبَ عبدٌ ذنبًا، فقال: أي ربِّ! أَذْنَبْتُ ذنبًا؛ فاغْفِرْهُ لي! فغفر لهُ. ثمَّ مكثَ ما شاء الله أن يمكُث، ثمَّ أَذْنَبَ ذنبًا آخر، فقال: أي رَبِّ! أَصَبْتُ ذنبًا؛ فاغْفِرْهُ لي! فغفرَ له. ثمَّ مكث ما شاء الله أن يمْكُثَ، ثمَّ أَذْنَبَ ذنبًا آخر، فقال: رَبِّ! أصبتُ ذنبًا؛ فاغْفِرْهُ لي! فقال الله: علِمَ عبدي أنَّ لهُ ربًّا يغْفِرُ**



الذَّنْبَ ويأخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لعبدي؛ فليَعْمَلْ ما شاءَ»[1].

فليس في هذا إطلاقٌ وإذنٌ منه سبحانه له في المحرَّماتِ والجرائم، وإنما يدلُّ علىٰ أنَّه يَغْفِرُ له ما دام كذلك إذا أذنب تابَ.

وكذلك كلُّ من بَشَّرَهُ رسولُ الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنَّه مغفورٌ له؛ لم يَفْهَمْ منه هو ولا غيرُه من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومُسامَحتَهُ بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشدَّ اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلَها؛ كالعشرةِ المشهودِ لهم بالجنة.

ص: ٢٣

فائدة جليلة

الإنعام ببسط الأرض وتذليلها

قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولًا مُنقادةً للوطءِ عليها وحَفْرِها وشَقِّها والبناءِ عليها، ولم يجعلها مستصعبةً ممتنعةً علىٰ من أراد ذلك منها. وأَخْبرَ سبحانه أنَّه جعلها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكفاتًا. وأَخْبرَ أنَّه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبَّتَها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطُّرُقَ، وأجرىٰ فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدَّرَ فيها أقواتها.

وحَسُنَ التعبيرُ بمناكبها عن طُرُقِها وفجاجِها لما تقدَّم من وصفها بكونها ذلولًا؛ فالماشي عليها يَطأُ علىٰ مناكبِها، وهي أعلىٰ شيءٍ فيها، ثم أمرَهُم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها؛ ثم نبَّه بقولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ علىٰ أنَّا في هذا المسكن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

غيرُ مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلْناه عابرِي سبيلٍ؛ فلا يَحْسُنُ أن نتَّخِذَه وطنًا ومستقرًّا، فتضمَّنت الآيةُ الدِّلالةَ علىٰ ربوبيتِهِ ووحدانيتِهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ ولطفِهِ، والتذكيرِ بنِعَمِهِ وإحسانه، والتحذير من الركونِ إلىٰ الدُّنيا واتِّخاذِها وطنًا ومستَقرًّا، بل نُسرعُ فيها السير إلىٰ دارِهِ وجنَّتِهِ.

فائدة

ص: ٢٥

قوة الإنسان النظرية والإرادية

للإنسان قوَّتان: قوةٌ علميةٌ نظريةٌ، وقوةٌ عمليةٌ إراديةٌ.

وسعادتُهُ التامَّةُ موقوفةٌ على استكمال قوَّتيه العلمية والإرادية.

واستكمالُ القوةِ العلميةِ إنَّما يكونُ: بمعرفة فاطرِهِ وبارئِهِ، ومعرفةِ أسمائِه وصفاتِهِ وأفعالِهِ، ومعرفة الطريق التي تُوصِلُ إليه ومعرفة آفاتِها، ومعرفةِ نفسِهِ ومعرفةِ عيوبِها؛ فبهذه المعارفِ الخمسة يحصُلُ كمالُ قوَّتِهِ العلمية، وأعلمُ الناس أعرَفُهم بها وأفقهُهم فيها.

واستكمالُ القوةِ العملية الإرادية لا يَحْصُلُ إلا بمراعاةِ حقوقِهِ سبحانَه علىٰ العبد والقيامِ بها إخلاصًا وصدقًا ونُصحًا وإحسانًا ومتابعةً وشُهودًا لِمِنَّتِهِ عليه وتقصيرِهِ هو في أداءِ حقِّه؛ فهو مُسْتَحْيِي من مُواجَهتِهِ بتلك الخدمةِ؛ لعلمِهِ أنها دونَ ما يَستحقُّه عليه ودونَ دونِ ذلك، وأنَّه لا سبيل له إلىٰ استكمال هاتين القوتين إلا بمعونتِهِ؛ فهو مضطرٌّ إلىٰ أنْ يَهدِيَهُ الصراطَ المستقيمَ الذي هَدىٰ إليه أولياءَهُ وخاصَّتَهُ، وأن يُجنِّبَهُ الخروج عن ذلك الصراطِ: إما بفسادٍ في قوتِهِ العلميةِ فيقعُ في الضَّلال، وإما في قوتِهِ العمليةِ فيُوجِبُ له الغضبَ.

فكمالُ الإنسانِ وسعادتُهُ لا تَتِمُّ إلا بمجموعِ هذه الأمور، وقد تضمَّنَتْها سورةُ

الفاتحة وانتظمتْها أكمل انتظام: فأولُ السورة رحمةٌ، وأوسطُها هدايةٌ، وآخرُها نعمةٌ. وحَظُّ العبدِ من النعمةِ علىٰ قَدْرِ حَظِّهِ من الهداية، وحظُّه منها علىٰ قَدْرِ حظِّه من الرحمةِ. فعادَ الأمرُ كلُّه إلىٰ نعمتِهِ ورحمتِهِ.

والله المستعان.

ص: ٢٨

فائدة

طريق معرفة العباد لربهم

الربُّ تعالىٰ يدعو عباده في القرآنِ إلىٰ معرفتِهِ من طريقين: **أحدُهما**: النظرُ في مفعولاتِهِ. **والثاني**: التفكُّر في آياتِهِ وتدبُّرِها؛ فتلك آياتُهُ المشهودةُ، وهذه آياتُهُ المسموعةُ المعقولةُ.

فالنوع الأول: كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلىٰ آخرها [البقرة: ١٦٤] وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهو كثيرٌ في القرآنِ.

والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقولِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وهو كثيرٌ أيضًا.

فأمّا المفعولاتُ فإنَّها دالَّةٌ علىٰ الأفعال، والأفعالُ دالَّةٌ علىٰ الصفات؛ فإنَّ المفعولَ يدلُّ علىٰ فاعلٍ فعَلَه، وذلك يَستلزمُ وجودَه وقدرتَه ومشيئتَه وعلمَه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياريِّ من معدوم أو موجودٍ لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة.

فالمصنوعاتُ شاهدة تُصدِّقُ الآياتِ المسموعاتِ، منبِّهةٌ علىٰ الاستدلال بالآياتِ المصنوعات.

قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: أنَّ القرآن حقٌّ؛ ولهذا قال الرسلُ لقومِهِم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟! فهو أعرف من كلِّ معروفٍ، وأبينُ من كلِّ دليل؛ فالأشياءُ عُرِفَتْ به في الحقيقة، وإنْ كان عُرِفَ بها في النظر والاستدلال بأفعالِهِ وأحكامِهِ عليه.

فائدة

ص: ٣٠

من أدب الدعاء: التذلل والاعتراف

في «المسند» و«صحيح أبي حاتم»[1] من حديث عبد الله بن مسعودٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ما أصاب عَبْدًا هَمٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهمَّ! إنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عبْدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ، ناصِيَتِي بيدِكَ، ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عدْلٌ فِيَّ قضاؤكَ، أسأَلُكَ بكُلِّ اسْمٍ هُوَ لك؛ سَمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ، أو أنْزَلْتَهُ في كِتابِكَ، أو عَلَّمْتَهُ أحدًا مِنْ خَلقِكَ، أو اسْتأْثَرْتَ بهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ: أن تَجْعلَ القُرْآنَ ربيع قلبي، ونُور صَدري، وجِلاءَ حُزْني، وذَهَاب همِّي وغَمِّي؛ إلَّا أذْهبَ الله همَّهُ وغمَّهُ وأبدلهُ مكَانهُ فرحًا**». قالوا: يا رسول الله! أفلا نتعلَّمُهُنَّ؟ قال: «**بلىٰ؛ ينْبغي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أن يَتَعلَّمهُنَّ**».

فتضمَّن هذا الحديثُ العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبودية:

* منها: أنَّ الدَّاعي به صدَّرَ سؤاله بقوله: «**إنِّي عَبدُك ابْنُ عبدِك ابنُ أمتِك**»، وهذا يتناولُ من فوقَهُ من آبائِهِ وأمهاتِهِ إلىٰ أبويْهِ آدمَ وحوَّاء، وفي ذلك تملُّقٌ له، واستخذاءٌ[2]

---

(١) «مسند أحمد» (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، «صحيح ابن حبان» (٩٧٢).

(٢) الاستخذاء: أي الخضوع. «العين» (١/ ١١٣)، مادة (خضع).

بين يديه، واعترافٌ بأنَّه مملوكُه وآباؤه مماليكُه، وأن العبد ليس له غيرُ بابِ سيِّدِهِ وفضلِهِ وإحسانِهِ، وأنَّ سيِّدَهُ إن أهمله وتخلَّىٰ عنه هلك، ولم يُؤْوِهِ أحدٌ، ولم يَعطِفْ عليه، بل يَضِيعُ أعظمَ ضَيعةٍ.

فتحت هذا الاعتراف: أنِّي لا غِنَىٰ بي عنك طرْفَة عينٍ، وليس لي من أعوذُ بِهِ وألوذُ به غير سيِّدي الذي أنا عبدُه.

وفي التحقُّق بمعنىٰ قولِهِ: «**إنِّي عبدُك**»: التزامُ عبوديَّتِهِ من الذُلِّ والخُضوعِ والإنابة، وامتثالُ أمرِ سيدِهِ، واجتنابُ نهيِهِ، ودوامُ الافتقارِ إليه، واللَّجَأ إليه، والاستعانةِ به، والتوكُّل عليه، وعياذِ العبدِ به، ولِياذِهِ به، وأن لا يتعلَّقَ قلبُهُ بغيرِهِ محبَّةً وخوفًا ورجاءً.

وفيه أيضًا أني عبدٌ من جميع الوجوه، صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميِّتًا، مطيعًا وعاصيًا، مُعافًىٰ ومبتلًىٰ؛ بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا أن مالي ونفسي مُلكٌ لك؛ فإن العبد وما يَملِكُ لسيدِه.

وفيه أيضًا أنَّكَ أنت الذي مننْتَ عليَّ بكلِّ ما أنا فيه من نعمةٍ؛ فذلك كلُّه من إنعامك علىٰ عبدك.

وفيه أيضًا: أنِّي لا أتصرَّف فيما خوَّلْتَني من مالي ونفسي إلا بأمرك؛ كما لا يتصرَّفُ العبدُ إلا بإذنِ سيِّدِهِ، وأنِّي لا أملكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

فإن صحَّ له شهودُ ذلك؛ فقد قال: إنِّي عبدُك حقيقةً.

* ثم قال: «**ناصيتي بيدِكَ**»؛ أي: أنت المتصرِّفُ فيَّ، تُصرِّفُني كيف تشاءُ، لستُ أنا المتصرِّف في نفسي.

وكيف يكونُ له في نفسه تصرُّفٌ وهو منْ نفسُهُ بيدِ ربِّه وسيِّدِهِ، وناصيتُهُ بيدِهِ، وقلبُهُ بين إصبعين من أصابعِهِ، وموتُهُ وحياتُهُ وسعادتُهُ وشقاوتُهُ وعافيتُهُ وبلاؤهُ كلُّه إليه سبحانه، ليس إلىٰ العبد منه شيءٌ، بل هو في قبضةِ سيِّدِهِ أضعفُ من مملوكٍ ضعيفٍ حقيرٍ ناصيتُهُ بيدِ سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له تحت تصرُّفِهِ وقهرِهِ، بل الأمرُ فوق ذلك؟!

فمن شَهِدَ نفسَهُ بهذا المشهدِ؛ صارَ فَقْرُهُ وضرورتُهُ إلىٰ ربِّه وصفًا لازمًا له، ومتىٰ شهدَ الناسَ كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يُعلِّقَ أملَه ورجاءَه بهم، فاستقامَ توحيدُه وتوكُّلُه وعبوديتُهُ.

ولهذا قال هودٌ لقومِهِ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

* وقوله: «**ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عدْلٌ فِيَّ قضاؤكَ**»: تضمَّنَ هذا الكلامُ أمرينِ: **أحدُهُما**: مضاءُ حكمِهِ في عبدِهِ. **والثاني**: يتضمَّن حمدَه وعدلَه، وهو سبحانه له المُلْكُ وله الحمدُ.

وهذا معنىٰ قولِ نبيِّهِ هودٍ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، ثم قال: ﴿ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾؛ أي: مع كونِهِ مالكًا قاهرًا متصرِّفًا في عبادِهِ نواصيهم بيدِهِ؛ فهو علىٰ صراطٍ مستقيم، وهو العدلُ الذي يتصرَّفُ بِهِ فيهم؛ فهو علىٰ صراطٍ مستقيم في قولِهِ وفعلِهِ وقضائِهِ وقَدَرِهِ وأمرِهِ ونهيِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ، فخبرُهُ كلُّه صدقٌ، وقضاؤُهُ كلُّه عدلٌ، وأمرُهُ كلُّه مصلحةٌ، والذي نهىٰ عنه كلُّهُ مفسدةٌ، وثوابُهُ لمنْ يَستحقُّ الثوابَ بفضلِهِ ورحمتِهِ، وعقابُهُ لمن يَستحقُّ العقابَ بعدلِهِ وحِكمتِهِ.

وقولُه: «**عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ**»: يتضمَّنُ جميعَ أقضيتِه في عبدِهِ من كلِّ الوجوهِ؛ من صحةٍ وسُقْم، وغنًىٰ وفقرٍ، ولذةٍ وألم، وحياةٍ وموتٍ، وعقوبةٍ وتجاوزٍ وغير ذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورىٰ: ٤٨]؛ فكلُّ ما يقضي علىٰ العبد فهو عدلٌ فيه.

* وقولُهُ: «**أسألُكَ بكلِّ اسم...**» إلىٰ آخرِهِ: توسُّلٌ إليه بأسمائه كلِّها؛ ما علم العبدُ منها وما لم يعلم. وهذه أحبُّ الوسائل إليه؛ فإنَّها وسيلةٌ بصفاتِهِ وأفعالِهِ التي هي مدلولُ أسمائِهِ.

* وقولُهُ: «**أنْ تجعل القُرْان ربيعَ قلبي ونورَ صدري**»: الربيعُ: المطرُ الذي يُحيي الأرض؛ شبَّه القرآن به لحياة القلوب به، وكذلك شبَّهَهُ الله بالمطر، وجمع بين الماء الذي تحصُلُ به الحياةُ والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق؛ كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ [الرعد: ١٧]. وفي قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩].

ولما كان الحُزْنُ والهمُّ والغمُّ يُضادُّ حياة القلبِ واستنارتَهُ؛ سأَلَ أن يكون ذَهابُها بالقرآن؛ فإنَّها أحرىٰ أن لا تعود، وأما إذا ذَهبتْ بغير القرآن من صحةٍ أو دنيا أو جاهٍ أو زوجةٍ أو ولدٍ؛ فإنَّها تعودُ بذهاب ذلك.

والمكروه الواردُ علىٰ القلب: إن كان من أمرٍ ماضٍ؛ أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل؛ أحدث الهمَّ، وإن كان من أمرٍ حاضرٍ؛ أحدث الغَمَّ. والله أعلم.

ص: ٣٨

فائدة

العرش أجل المخلوقات وأطهرها

أنزَهُ الموجودات وأطهَرُها وأنورُها وأشرفُها وأعلاها ذاتًا وقَدْرًا وأوسعُها عرشُ الرحمن جلَّ جلالُه، ولذلك صلح لاستوائه عليه.

وكلُّ ما كان أقربَ إلىٰ العرش؛ كان أنور وأنْزَه وأشرف مما بعدَ عنه. ولهذا كانت جنةُ الفردوسِ أعلىٰ الجِنانِ وأشرفها وأنورها وأجلَّها؛ لقُربِها من العرش؛ إذ هو سَقْفُها[1].

وكلُّ ما بعدَ عنه كان أظلم وأضيق. ولهذا كان أسفل سافلينَ شرَّ الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كلِّ خيرٍ.

وخَلَق الله القلوب وجعلها محلًّا لمعرفتِهِ ومحبَّتِهِ وإرادتِهِ؛ فهي عرشُ المثل الأعلىٰ الذي هو معرفتُه ومحبتُه وإرادتُه. قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]؛ فهذا من المثل الأعلىٰ، وهو مستوٍ علىٰ قلب المؤمن؛ فهو عرشُه. وإن لم يكن أطهرَ الأشياء وأنزهَها وأطيبَها وأبعدَها من كل دنس وخبث؛ لم يصلُحْ لاستواء، المثل الأعلىٰ عليه معرفةً ومحبةً وإرادةً، فاستوىٰ عليه مثلُ الدُّنيا الأسفلُ ومحبتُها وإرادتُها والتعلُّق بها، فضاق وأظلم وبعد من كمالِهِ وفلاحه. حتىٰ تعود القلوبُ علىٰ قلبين: قلبٍ هو عرشُ الرحمن؛ ففيه النورُ والحياة والفرحُ والسرور والبهجةُ وذخائرُ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٤٢٣).

الخير. وقلبٍ هو عرشُ الشيطان؛ فهناك الضِّيقُ والظلمة والموتُ والحزن والغمُّ والهمُّ؛ فهو حزينٌ علىٰ ما مضىٰ، مهمومٌ بما يُستقْبَلُ، مغمومٌ في الحال.

ص: ٣٩

فائدة

تأكيد القرآن على ربوبية الله تعالى

تأمَّلْ خطابَ القرآن، تجدْ ملكًا له الملك كلُّه وله الحمدُ كلُّه، أَزِمَّةُ الأمور كلِّها بيدَيْه ومصدَرُها منه ومردُّها إليه، مستويًا علىٰ سرير ملكه، لا تخفىٰ عليه خافيةٌ في أقطار مملكتِهِ، عالِمًا بما في نفوس عبيدِهِ، مُطَّلِعًا علىٰ إسرارِهِم وعلانِيَتِهِم، منفردًا بتدبير المملكة، يَسمعُ ويَرىٰ، ويُعطِي ويَمنعُ، ويُثِيبُ ويعاقِبُ، ويُكْرِمُ ويُهِيْن، ويخلُق ويرزُقُ، ويُميتُ ويُحْيي، ويُقدِّرُ ويَقضي ويُدبِّر، الأمورُ نازلةٌ من عنده دقيقُها وجليلُها وصاعدةٌ إليه، لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلا بإذنِه، ولا تسقطُ ورقةٌ إلا بعلمِهِ.

فتأمَّلْ كيف تجِدُهُ يُثْني علىٰ نفسِهِ، ويُمجِّد نفسه، ويحمدُ نفسه، وينصِح عباده، ويدُلُّهم علىٰ ما فيه سعادتُهم وفلاحُهم، ويُرغِّبُهم فيه، ويُحذِّرُهم مما فيه هلاكُهم، ويتعرَّفُ إليهم بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ويَتحبَّبُ إليهم بنعمِهِ وآلائِهِ؛ فيُذكِّرهم بنِعَمِه عليهم ويَأمرهم بما يستوجبون به تمامَها، ويُحذِّرهم من نِقَمِه ويُذكِّرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدَّ لهم من العقوبة إن عصوهُ، ويُخبِرُهم بصنعِهِ في أوليائِهِ وأعدائِهِ، وكيف كانت عاقبةُ هؤلاءِ وهؤلاءِ، ويُثني علىٰ أوليائِهِ بصالح أعمالِهِم وأحسن أوصافهم، ويذمُّ أعداءه بسيِّئِ أعمالِهِم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، ويُنوِّعُ الأدلة والبراهين، ويُجيب عن شُبه أعدائِهِ أحسنَ الأجوبة، ويُصدِّقُ الصادق، ويكذِّبُ الكاذب، ويقولُ الحقَّ، ويهدي السبيل، ويدعو إلىٰ دار السلام ويَذكُرُ أوصافها وحُسنها ونعيمها، ويُحذِّرُ من دار البوار ويَذكُرُ عذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّرُ عباده فقرهم إليه وشدَّة حاجتهم إليه من كلِّ وجهٍ، وأنَّهم لا غِنَىٰ لهم عنه

طرفةَ عينٍ، ويذكُرُ غِناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغنيُّ بنفسه عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بنفسه، وأنه لا ينالُ أحدٌ ذرَّةً من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرَّة من الشر فما فوقها إلا بعدلِهِ وحكمتِهِ.

ويشهدُ من خطابه عتابَهُ لأحبابِهِ ألطفَ عتابٍ، وأنه مع ذلك مُقِيلٌ عثراتهم، وغافرٌ زلَّاتِهم، ومُقيمٌ أعذارهم، ومُصلحٌ فسادهم، والدافع عنهم، والمُحامي عنهُم، والناصرُ لهم، والكفيلُ بمصالحهم، والمُنجي لهم من كلِّ كربٍ، والمُوفِي لهم بوعده، وأنَّه وليُّهم الذي لا وليَّ لَهم سواهُ؛ فهو مولاهم الحقُّ، ونَصيرُهم علىٰ عدوِّهم؛ فنعم المولىٰ ونعم النصيرُ.

فإذا شَهدتِ القلوبُ من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنُهُ، فكيف لا تحُبُّه، وتُنافِسُ في القُرْب منه، وتُنْفِقُ أنفاسها في التودُّد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كل ما سواه، ورضاهُ آثر عندها من رضى كلِّ ما سواه؟! وكيف لا تلهَجُ بذكْرِهِ، ويصير حبُّه والشوقُ إليه والأُنسُ به هو غذاءها وقُوتَهَا ودواءَها؛ بحيثُ إن فقدتْ ذلك، فسدتْ وهلكتْ ولم تَنتفعْ بحياتها؟!

فائدة

ص: ٤١

وجوب تصفية القلب من العقائد الفاسدة

قَبولُ المَحلِّ لما يُوضع فيه مشروطٌ بتفريغه من ضدِّه، وهذا كما أنَّه في الذَّواتِ والأعيان؛ فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات:

فإذا كان القلبُ ممتلئًا بالباطل اعتقادًا ومحبةً؛ لم يبْقَ فيه لاعتقاد الحقِّ ومحبتِهِ موضعٌ؛ كما أنَّ اللسان إذا اشتغلَ بالتكلُّم بما لا ينفعُ؛ لم يَتمكَّنْ صاحبُهُ من النُّطق بما ينفعُهُ؛ إلا إذا فرَّغ لسانه من النُّطق بالباطل، وكذلك الجوارحُ إذا اشتغلت بغير

الطاعة؛ لم يُمكن شغلها بالطَّاعة إلَّا إذا فرَّغها من ضدِّها.

وسرُّ ذلك أنَّ إصغاء القلب كإصغاءِ الأُذُنِ: فإذا صَغا إلىٰ غير حديث الله؛ لم يبْقَ فيه إصغاءٌ ولا فهمٌ لحديثِهِ، كما إذا مال إلىٰ غير محبَّة الله؛ لم يبقَ فيه ميلٌ إلىٰ محبَّتِهِ، فإذا نطق القلبُ بغير ذِكرِهِ؛ لم يَبْقَ فيه محلٌّ للنُّطقِ بذكرِهِ كاللسان.

ولهذا في «الصحيح»(١) عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لأنْ يَمْتَلِئَ جوفُ أحدِكُمْ قَيْحًا حتَّىٰ يَرِيَهُ خيرٌ له من أن يمتلئَ شعرًا**»؛ فبيَّنَ أنَّ الجوف يمتلئُ بالشِّعرِ.

فكذلك يمتلئُ بالشُّبه، والشُّكوكِ، والخيالاتِ، والتقديرات التي لا وجود لها، والعلوم التي لا تنفعُ، والمُفاكَهاتِ، والمُضحِكاتِ، والحكاياتِ ونحوها.

ص: ٤٣

التكاثر المذموم

فائدة

قولُه تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلىٰ آخرها [التكاثر: ١].

أُخْلِصَتْ هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد، وكفىٰ بها موعظةً لمن عقلها.

فقولُه تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾؛ أي: شَغَلَكُم علىٰ وجهٍ لا تُعذَرون فيه؛ فإنَّ الإلهاء عن الشيءِ هو الاشتغالُ عنهُ، واللهوُ للقلب، واللعبُ للجوارح، ولهذا يُجْمعُ بينهما. ولهذا كأنه قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أبلغ في الذَّمِّ من (شَغلَكُم)؛ فإنَّ العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاهٍ به؛ فاللهو هو ذهولٌ وإعراضٌ.

والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي مكاثرة بعضكم لبعض، وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادةً لإطلاقه وعمومه، والتكاثر أن يطلب الرجلُ أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذمومٌ؛ إلَّا فيما يُقَرِّبُ إلىٰ الله؛ فالتكاثر فيه منافسةٌ في الخيرات ومسابقة إليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧).

وفي «صحيح مسلم»(١) من حديث عبد الله بن الشخِّير أنه انتهىٰ إلىٰ النبيِّ ﷺ وهُو يقرَأُ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: «**يقولُ ابنُ آدم: مالي! مالي! وهل لك من مالك إلَّا ما تصدقتَ فأمضيتَ، أو أكلتَ فأفْنيتَ، أو لبِستَ فأبليتَ؟!**».

تنبيه

ص: ٤٤

* من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذُنه.

في عدم الاغترار بالدنيا والشهوات

* **للعبد سترٌ بينه وبين الله وسترٌ بينه وبين الناس؛ فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله؛ هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.**

* للعبد ربٌّ هو ملاقيه وبيتٌ هو ساكنُهُ؛ فينبغي له أن يسترضيَ ربَّه قبل لقائه، ويعمُرَ بيته قبل انتقالِهِ إليه.

* **إضاعة الوقت أشدُّ من الموت؛ لأنَّ إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموتُ يقطعك عن الدنيا وأهلها.**

* **الدُّنيا من أولها إلى آخرها لا تُساوي غمَّ ساعة؛ فكيف بغمِّ العُمر؟!**

* محبوبُ اليوم يعقب المكروه غدًا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا.

* **أعظم الرِّبْح في الدُّنيا أن تشتغل نفسك كلَّ وقت بما هو أولى بها وأنفعُ لها في معادها.**

* كيف يكون عاقلًا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟!

---

(١) برقم (٢٩٥٨).

* يخرُجُ العارفُ من الدُّنيا ولم يقضِ وَطَرَهُ من شيئين: بكاؤُهُ علىٰ نفسه، وثناؤُهُ علىٰ ربِّه.

*** المخلوق إذا خِفتَه؛ استوحشتَ منه وهربتَ منه، والربُّ تعالى إذا خِفتَه؛ أنستَ به وقَرُبتَ إليه.**

* لو نفع العلم بلا عمل؛ لما ذمَّ الله سبحانه أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص؛ لما ذمَّ المنافقين.

*** دافع الخطرةَ؛ فإن لم تفعل صارت فكرةً؛ فدافع الفكرة؛ فإن لم تفعل صارت شهوةً؛ فحاربْها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّةً؛ فإن لم تُدافعها صارت فعلًا؛ فإن لم تتداركهُ بضدِّه صار عادةً، فيصعُبُ عليك الانتقالُ عنها.**

*** لمَّا طلب آدمُ الخلود في الجنة من جانب الشجرة؛ عُوقِب بالخُروج منها، ولما طلب يوسفُ الخروج من السجن من جهة صاحب الرُّؤيا؛ لبث فيه بضع سنين.**

* إذا جرىٰ علىٰ العبد مقدورٌ يكرهُهُ؛ فله فيه ستةُ مشاهد:

أحدُها: مشهدُ التوحيد، وأنَّ الله هو الذي قدَّرهُ وشاءهُ وخلقهُ، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهدُ العدل، وأنه ماضٍ فيه حُكْمُهُ، عدلٌ فيه قضاؤُهُ.

الثالث: مشهد الرحمة، وأنَّ رحمته في هذا المقدور غالبةٌ لغضبِهِ وانتقامِهِ، ورحمتُهُ حشوُهُ.

الرابع: مشهدُ الحكمة، وأن حكمتَهُ سبحانه اقتضتْ ذلك، لم يُقدِّرْهُ سُدًىٰ ولا قضاه عبثًا.

الخامس: مشهد الحمدِ، وأنَّ له سبحانه الحمد التامَّ علىٰ ذلك من جميع وجوهِهِ.

السادسُ: مشهدُ العبوديَّة، وأنه عبدٌ محضٌ من كلِّ وجه، تجري عليه أحكامُ سيِّدِه وأقضيتُهُ بحكم كونه ملكه وعبدهُ، فيُصَرِّفُه تحت أحكامه القدرية كما يصرِّفُهُ تحت أحكامه الدينية؛ فهو محلٌّ لجَرَيانِ هذه الأحكام عليه.

*** قلةُ التوفيق، وفسادُ الرأي، وخفاءُ الحقِّ، وفسادُ القلبِ، وخُمولُ الذِّكْر، وإضاعةُ الوقت، ونفرةُ الخلق، والوحشةُ بين العبد وبين ربِّه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحقُ البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم،، ولباس الذُّلِّ، وإدالةُ العدوِّ، وضيقُ الصدر، والابتلاءُ بقُرَناء السَّوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهمِّ والغمِّ، وضنْكُ المعيشة، وكسفُ البال: تتولَّدُ من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولَّدُ الزرعُ عن الماء والإحراقُ عن النار. وأضدادُ هذه تتولَّدُ عن الطاعة.**

فصل

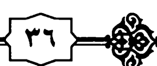
ص: ٤٧

من مقام العبودية أن لا يرى ربه إلا محسنا

طوبىٰ لمن أنصف ربَّه؛ فأقرَّ له بالجهل في علمه، والآفاتِ في عمله، والعيوبِ في نفسه، والتَّفريط في حقِّه، والظُّلم في معاملته.

فإن آخذَهُ بذُنوبه رأىٰ عدلَهُ، وإن لم يؤاخِذْه بها رأىٰ فضْلَهُ.

وإن عمل حسنةً رآها من منَّتِهِ وصدَقَتِه عليه؛ فإن قبِلها فمنةٌ وصدقةٌ ثانيةٌ، وإن ردَّها فلكون مثلها لا يصلح أن يُواجه به.



وإن عمل سيئةً رآها من تخلِّيه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه، وذلك من عدله فيه، فيرىٰ في ذلك فقرهُ إلىٰ ربِّه، وظلمهُ في نفسه؛ فإن غفرها له؛ فبمحضِ إحسانِه وجوده وكرمه.

ونكتةُ المسألة وسرُّها أنَّه لا يرىٰ ربَّه إلا محسنًا، ولا يرىٰ نفسهُ إلا مُسيئًا أو مفرِّطًا أو مقصِّرًا، فيرىٰ كلَّ ما يَسُرُّه من فضل ربِّه عليه وإحسانه إليه وكلَّ ما يسوؤهُ من ذنوبه وعدل الله فيه.

ص: ٤٨

فائدة

الغيرة نوعان

الغَيرَةُ غيرتان: غيرةٌ علىٰ الشيء، وغيرةٌ من الشيءِ.

فالغيرةُ علىٰ المحبوب: حرصُكَ عليه، والغيرةُ من المكروه أن يُزاحِمَك عليه.

فالغيرة علىٰ المحبوب لا تتمُّ إلا بالغيرة من المزاحم.

وهذه تُحمدُ حيثُ يكونُ المحبوبُ تقبُحُ المشاركةُ في حبِّهِ؛ كالمخلوق.

وأما من تحسُنُ المشاركةُ في حُبِّه؛ كالرسول والعالم بل الحبيب القريب سبحانه؛ فلا يُتَصوَّرُ غيرَةُ المزاحمة عليه، بل هو حسدٌ! والغيرةُ المحمودةُ في حقِّه أن تكون أحوالُهُ وأعمالُهُ وأفعالُهُ كلُّها لله، وكذلك يغارُ علىٰ أوقاتِه أن يذهب منها وقتٌ في غير رِضَىٰ محبوبِهِ.

فهذه الغيرةُ من جهةِ العبد، وهي غيرةٌ من المُزاحِم له المُعوِّقِ القاطع له عن مرضاةِ محبوبِهِ.

وأمَّا غيرَةُ محبوبه عليه؛ فهي كراهيةُ أن ينصرفَ قلبُهُ عن محبتِهِ إلىٰ محبةِ غيره بحيث يشاركُهُ في حبِّه.

* من عظُمَ وَقارُ الله في قلبهِ أن يعصيَهُ؛ وَقَّرَهُ الله في قلوب الخلق أن يُذِلُّوه.

* أولُ منازل القوم: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وأوسطُها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وآخرُها: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

* مثالُ تولُّدِ الطاعات ونُموِّها وتزايُدِها؛ كمثل نواةٍ غرستَها، فصارت شجرةً، ثم أثمرتْ، فأكلتَ ثمرها، وغَرستَ نواها، فكلَّما أثمر منها شيءٌ جَنيتَ ثمرَهُ، وغَرستَ نواهُ، وكذلك تَداعِي المعاصي.

فليتدَبَّرِ اللبيبُ هذا المثال؛ فمن ثواب الحسنةِ الحسنةُ بعدها، ومن عقوبة السيئةِ السيئةُ بعدها.

* ليس العجبُ من مملوكٍ يتذلَّلُ لله ويتعبَّدُ له ولا يملُّ من خِدْمَتِهِ مع حاجتِهِ وفقرِهِ إليه، إنَّما العجبُ من مالكٍ يتحبَّبُ إلىٰ مملوكِهِ بصنوفِ إنعامِهِ ويتودَّدُ إليه بأنواع إحسانِهِ مع غِناهُ عنهُ.

* كفىٰ بك عِزًّا أنك له عبدٌ، وكفىٰ بك فخرًا أنَّه لك ربٌّ.

فصل

ص: ٥١

الحذر من المعاصي

*** إيَّاكَ والمعاصي؛ فإنهَّا أذلَّتْ عزَّ** ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ [البقرة: ٣٤] **وأخرجتْ إقطاع** ﴿ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥].

* يا لها لحظة أثمرتْ حرارة القلقِ ألف سنة.

*** ما زال يكتُبُ بدم النَّدَم سطور الحزن في القصص، ويُرسلُها مع أنفاس الأسف، حتَّى جاءه توقيعُ:** ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

* فرح إبليسُ بنزول آدمَ من الجنة، وما علم أنَّ هبوط الغائص في اللُّجَّة خلف الدُّرِّ صعودٌ.

* كم بين قولِهِ لآدم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله لك: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٣]!!

* ما جرىٰ علىٰ آدم هو المرادُ من وجودِهِ، «**لَوْ لَمْ تُذْنِبوا...**»[١].

*** يا آدمُ! لا تجزعْ من قولي لك:** ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]؛ **فلك ولصالح ذُرِّيَّتِكَ خلقْتُها.**

* يا آدم! كنت تدخلُ عليَّ دخولَ الملوك علىٰ الملوك، واليوم تدخل عليَّ دخولَ العبيد علىٰ الملوك.

*** يا آدم! لا تجزعْ من كأس زللٍ كانت سببَ كيسك؛ فقد استخرج منك داءُ العُجب، وألبِسْتَ خلعةَ العبوديَّة،** ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

* يا آدم! لم أُخرج إقطاعك إلىٰ غيرك، إنما نحَّيتُك عنه؛ لأكمِّل عمارتهُ لك، وليبعث إليَّ العمالُ نفقةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ [السجدة: ١٦].

* تالله ما نفعهُ عند معصيته عزُّ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤] ولا شرف ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣١]، ولا خصيصةُ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ولا فخرُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، وإنما انتفع بذُلِّ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

* لَمَّا لبس دِرْعَ التوحيد علىٰ بدن الشُّكر؛ وقعَ سهمُ العدوِّ منه في غير مقتل، فجرحهُ، فوضع عليه جُبارَ الانكسار، فعاد كما كان، فقام الجريح كأن لم يكن به قلبةٌ.

فصل

ص: ٥٢

فضيلة سلمان الفارسي في البحث عن الحق

لما قُضي في القدم بسابقةِ سلمان؛ عرَّجَ به دليلُ التوفيق عن طريق آبائه في التَّمَجُّس، فأقبل يناظرُ أباه في دين الشرك، فلما عَلاهُ بالحُجَّة؛ لم يكن له جوابٌ إلا القيد، فنزل به ضيفُ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: ١٥٥]، فنال بإكرامِهِ مرتبةَ «**سلمانُ منَّا أهلَ البيت**»[1]، فسمع أن ركبًا علىٰ نية السفر، فسرقَ نفسَه من أبيه ولا قطع، فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة، فغاص في بحر البحث ليقع بدُرَّةِ الوجود، فوقف نفسه علىٰ خدمة الأدلَّاء وقوفَ الأذلَّاء، فلما أحسَّ الرهبانُ بانقراض دولتهم؛ سلَّموا إليه أعلام الإعلام علىٰ نبوَّة نبيِّنا، وقالوا: إنَّ زمانه قد أظلَّ؛ فاحذر

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٩٨) مرفوعا، وسنده ضعيف، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٨٦) موقوفا علىٰ علي. وسنده صحيح.

أن تضلَّ! فرحل مع رفقةٍ لم يرفُقوا به، فَشَروهُ بثمن بَخْسٍ دراهم معدودةٍ، فابتاعه يهوديٌّ بالمدينة، فلما رأىٰ الحرَّة؛ توقَّد حَرُّ شَوقِه، ولم يعلم ربُّ المنزل بوجدِ النازل؛ فبينا هو يُكابدُ ساعات الانتظارَ؛ قدم البشيرُ بقدوم البشير، وسلمان في رأس نخلةٍ، وكاد القلقُ يُلقيه، لولا أنَّ الحزم أمسكهُ؛ فلما لقيَ الرسول عارض نسخةَ الرُّهبانِ بكتابِ الأصل، فوافقَهُ. يا محمدُ! أنت تريدُ أبا طالبٍ، ونحنُ نريدُ سلمان.

أبو طالبٍ إذا سُئلَ عن اسمِهِ قال: عبدُ منافٍ. وإذا انتسبَ افْتَخَرَ بالآباءِ. وإذا ذُكِرَتِ الأموالُ عَدَّ الإبِلَ. وسلمانُ إذا سُئل عن اسمِهِ قال: عبدُ الله. وعن نسبهِ قال: ابنُ الإسلام. وعن مالِهِ قال: الفقرُ. وعن حانوتِهِ قال: المسَجدُ. وعن كَسْبهِ قال: الصبرُ. وعن لباسِهِ قال: التقوىٰ والتواضعُ. وعن وسادِهِ قال: السهرُ. وعن فخرِهِ قال: «**سلمانُ مِنَّا**». وعن قصدِهِ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]. وعن سيرهِ قال: إلىٰ الجنة. وعن دليلِهِ في الطريق قال: إمامُ الخلق وهادي الأئمة.

* **الذنوبُ جراحاتٌ، ورُبَّ جُرْحٍ وقع في مقتل.**

* لو خرج عقلُك من سلطان هواكَ عادتِ الدولةُ له.

* دخلتَ دار الهوىٰ؛ فَقامرْتَ بعُمرِكَ.

* إذا عرضتْ نظرةٌ لا تحلُّ فاعلم أنها مِسْعَرُ حَربٍ؛ فاسترْ منها بحجاب ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣٠]؛ فقد سَلِمتَ من الأثر، وكفىٰ الله المؤمنين القتال.

* كم قُطِعَ زَرعٌ قبل التَّمام؛ فما ظنُّ الزَّرعِ المستحصد.

* اشترِ نفسَك؛ فالسوقُ قائمةٌ، والثمنُ موجودٌ.

* لا بدَّ من سِنَةِ الغفلة ورُقادِ الهوىٰ، ولكن كُنْ خفيفَ النوم؛ فحُرَّاسُ البلد

يصيحون: دنا الصباحُ!

* نورُ العقل يُضيء في ليل الهوىٰ، فتلُوحُ جادَّةُ الصواب، فيتلمَّحُ البصيرُ في ذلك النور عواقبَ الأمور.

* اخرُجْ بالعزم من هذا الفِنَاء الضَّيِّق المحشُوِّ بالآفات إلىٰ ذلك الفِنَاء الرَّحبِ الذي فيه ما لا عينٌ رأتْ؛ فهناك لا يتعذَّرُ مطلوبٌ ولا يُفْقَدُ محبوبٌ.

* يا مُخنَّثَ العزم! أين أنت؛ والطريقُ طريقٌ تعبَ فيه آدمُ، وناحَ لأجلِهِ نوحٌ، ورُمِيَ في النار الخليلُ، وأُضْجِعَ للذبح إسماعيلُ، وبِيع يوسفُ بثمنٍ بَخْس ولَبِث في السجن بضعَ سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكرِيَّا، وذُبح السيدُ الحصورُ يحيىٰ، وقاسَىٰ الضُّرَّ أيوبُ، وزاد علىٰ المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسىٰ، وعالج الفقرَ وأنواعَ الأذىٰ محمدٌ ﷺ؛ تُزْهَىٰ أنت باللهوِ واللعب؟!

* من لم يُباشِرْ حَرَّ الهجيرِ في طِلابِ المجد؛ لم يَقِلْ في ظِلال الشرف.

فائدة

ص: ٥٨

الأنس بالله تعالى في الخلوة

*** من فَقَدَ أُنْسَهُ بالله بين الناس ووجدَه في الوَحْدَة؛ فهو صادقٌ ضعيفٌ، ومن وجدَهُ بين الناس وفقدَهُ في الخلوة؛ فهو معلولٌ، ومن فقدَهُ بين الناس وفي الخلوة؛ فهو ميتٌ مطرودٌ، ومن وَجَدَهُ في الخلوة وفي الناس؛ فهو المحبُّ الصادقُ القويُّ في حاله.**

ومن كان فتحُهُ في الخلوة؛ لم يكن مزيدُهُ إلَّا منها، ومن كان فتحُهُ بين الناس ونصحِهِم وإرشادِهِم؛ كان مزيدُهُ معهُم، ومن كان فتحُهُ في وقوفِهِ مع مرادِ الله حيث أقامَه وفي أيِّ شيءٍ اسْتَعْمَلَهُ؛ كان مزيدُهُ في خلوتِهِ ومع الناس.

فأشرفُ الأحوالِ أن لا تختارَ لنفسِكَ حالةً سوىٰ ما يختارُهُ لك ويُقِيمُكَ فيه؛ فكنْ مع مرادِهِ منكَ، ولا تكنْ مع مرادِكَ منه.

* مصابيحُ القلوبِ الطاهرةِ في أصل الفطرة مُنِيرةٌ قبل الشرائع، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

* وَحَّدَ قُسٌّ وما رأىٰ الرسولَ، وكَفَرَ ابنُ أبيٍّ وقد صلىٰ معه في المسجد.

* مع الضَّبِّ رِيٌّ ولا ماء، وكم من عطشانَ في اللُّجَّةِ.

* سبَقَ العلمُ بنبوَّةِ موسىٰ وإيمانِ آسية، فَسِيقَ تابوتُهُ إلىٰ بيتها، فجاء طفلٌ منفردٌ عن أمٍّ، إلىٰ امرأةٍ خاليةٍ عن ولدٍ! فللهِ كم في هذه القصة من عبرةٍ! كم ذَبَحَ فرعونُ في طلب موسىٰ من ولدٍ، ولسانُ القَدَرِ يقولُ: لا نُربِّيهِ إلّا في حِجْرِكَ!!

* القواطعُ مِحَنٌ يتبيَّنُ بها الصادقُ من الكاذبِ؛ فإذا خُضْتَها انقلبتْ أعوانًا لك توصِلُك إلىٰ المقصودِ.

فصل

ص: ٦١

الحذر من الدنيا وشهواتها

* الدُّنيا كامرأةٍ بَغِيٍّ لا تَثْبُتُ مع زوجٍ، إنَّما تَخْطُبُ الأزواجَ لِيُسْتَحْسَنوا عليها؛ فلا ترضَ بالدِّياثَةِ.

* تزخرفت الشَّهواتُ لأعين الطِّباع، فغَضَّ عنها الذين يؤمنون بالغيب، ووقِعَ تابعوها في بَيداءِ الحسرات؛ فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، هؤلاء يُقالُ لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

* لمَّا عرف الموفَّقون قدْرَ الحياةِ الدُّنيا وقلة المُقام فيها؛ أماتوا فيها الهوىٰ طلبًا لحياة الأبد.

ص: ٦٢

من العجب إعراض العبد عن ربه

فصل

من أعجبِ الأشياءِ: أن تعرِفَه ثم لا تحبَّهُ، وأن تسمع داعِيَهُ ثم تتأخَّر عن الإجابة، وأن تعرفَ قدرَ الربح في معاملتِهِ ثم تعامل غيرَهُ، وأن تعرف قدْر غضبهِ ثم تتعرَّض له، وأن تذوقَ ألمَ الوَحْشةِ في معصيتِهِ ثم لا تَطْلُبَ الأنسَ بَطاعتِهِ، وأن تذوقَ عُصْرةَ القلبِ عند الخوْض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلىٰ انشراح الصَّدْرِ بذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، وأن تذوقَ العذابَ عند تعلُّق القلب بغيره ولا تهرب منه إلىٰ نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!! وأعجبُ من هذا علمُك أنَّك لا بدَّ لك منهُ وأنَّك أحوجُ شيءٍ إليه وأنت عنه مُعْرِضٌ وفيما يُبعِدُك عنه راغبٌ!!

ص: ٦٣

سبب المعصية: الجهل وغلبة الشهوة

فائدة

ما أخذ العبدُ ما حُرِّم عليه إلا من جهتين:

إحداهُما: سوءُ ظنِّهِ بربِّهِ، وأنَّه لو أطاعَهُ وآثَرَهُ لم يُعطِهِ خيرًا منه حلالًا.

والثانيةُ: أن يكون عالِمًا بذلك، وأنَّ مَنْ تركَ لله شيئًا أعاضَهُ خيرًا منه، ولكن تغلِبُ شهوتُهُ صبرَهُ وهواهُ عقلَهُ.

فالأولُ مِن ضَعْفِ علمِهِ، **والثاني** من ضَعْفِ عقلِهِ وبصيرتِهِ.

* قال يحيىٰ بن معاذٍ: من جمع الله عليه قلبَهُ في الدُّعاءِ لم يَرُدَّهُ.

قلتُ: إذا اجتمع عليه قلبُهُ، وصَدَقتْ ضرورتُهُ وفاقتُهُ، وقَوِيَ رجاؤُهُ؛ فلا يكاد يُرَدُّ دعاؤُهُ.

فصل

ص: ٦٣

الرحيل عن الدنيا وترك زخارفها

* لما رأىٰ المتيقِّظون سطوةَ الدُّنيا بأهلها، وخداعَ الأملِ لأربابِهِ، وتملُّك الشيطانِ قيادَ النُّفوس، ورأوا الدولة للنفس الأمَّارةِ؛ لجأوا إلىٰ حصنِ التضرُّع والالتجاءِ؛ كما يأوي العبدُ المذعورُ إلىٰ حَرَمِ سيِّدِهِ.

* لاحَ لهمُ حَبُّ المشتهَىٰ، فلما مدُّوا أيدي التناول؛ بانَ لأبصارِ البصائرِ خيطُ الفخِّ، فطاروا بأجنحةِ الحَذَرِ، وصوَّبوا إلىٰ الرحيل الثاني: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

*** تلمَّحَ القومُ الوجودَ، ففهِموا المقصودَ، فأجمعوا الرحيلَ قبل الرحيل، وشمَّروا للسيرِ في سواء السبيل؛ فالناسُ مشتغلون بالفضلات، وهم في قطع الفلوات، وعصافيرُ الهوى في وَثاق الشبكة ينتظرونَ الذبحَ.**

* وَقَعَ ثَعْلبانِ في شبكةٍ، فقال أحدُهما للآخرِ: أينَ الملتقىٰ بعد هذا؟ فقال: بعد يومينِ في الدِّباغةِ.

* تالله ما كانتِ الأيامُ إلا منامًا؛ فاستيقظوا وقد حصلوا علىٰ الظَّفَرِ.

* ما مضىٰ من الدُّنيا أحلامٌ، وما بقي منها أمانيٌّ، والوقتُ ضائعٌ بينَهما.

* كيف يَسْلَمُ من له زوجةٌ لا تَرحمُهُ، وولدٌ لا يَعذِرُه، وجارٌ لا يأمَنُه، وصاحبٌ

لا ينصحُه، وشريكٌ لا يُنصِفُه، وعدوٌّ لا ينامُ عن معاداته، ونفسٌ أمَّارةٌ بالسوءِ، ودُنيا متزينةٌ، وهوًىٰ مُرْدٍ، وشهوةٌ غالبةٌ له، وغضبٌ قاهرٌ، وشيطانٌ مزيِّنٌ، وضعفٌ مستولٍ عليه؟!

فإن تولَّاهُ الله وجذَبَهُ إليه انقهرتْ له هذه كلُّها، وإن تخلَّىٰ عنه ووكلَهُ إلىٰ نفسه اجتمعت عليه، فكانت الهَلَكةُ.

* إذا حملتَ علىٰ القلب همومَ الدُّنيا وأثقالَها، وتهاونتَ بأورادِهِ التي هي قُوتُهُ وحياتُهُ؛ كنتَ كالمسافر الذي يُحمِّلُ دابَّتَهُ فوق طاقتِها، ولا يُوفيها علفَها؛ فما أسرع ما تَقِفُ به!

* أَلِفْتَ عَجْزَ العادةِ؛ فلو عَلَتْ بك هِمَّتكَ رُبا المعالي؛ لاحتْ لك أنوارُ العزائم.

* إنَّما تفاوَتَ القومُ بالهِمَم لا بالصُّوَرِ.

* **غَرْسُ الخَلْوَةِ يُثْمِرُ الأنسَ.**

* **استوحِشْ مما لا يدومُ معكَ، واستأنسْ بمَن لا يفارِقُك.**

* عزلةُ الجاهل فسادٌ، وأما عزلةُ العالِم فمَعَها حِذاؤُها وسِقاؤُها.

* إذا اجتمع العقلُ واليقينُ في بيتِ العُزْلَةِ، واستَحْضَرا الفكرَ، وجرتْ بينَهم مناجاةٌ:

أتـاكَ حديـثٌ لا يُمَـلُّ سَـماعُهُ ... شَـهِـيٌّ إلَـيـنـا نَـثْـرُهُ ونِـظـامُـهُ

إذا ذَكَرَتْـهُ النَّفْـسُ زال عَناؤهـا ... وزال عَنِ القلبِ المُعَنَّى ظلامُهُ

* إذا خَرَجَتْ مِن فِي عَدُوِّكَ لفظةُ سَفَهٍ فلا تُلْحِقْها بمِثْلِها؛ تُلَقِّحْها، ونَسْلُ الخصام نَسْلٌ مذمومٌ.

*** حَمِيَّتُكَ لنفسكَ أثرُ الجهل بها؛ فلو عَرَفْتَها حقَّ معرِفتِها أعَنْتَ الخصمَ عليها.**

• إذا اقْتَدَحَتْ نارُ الانتقام من نارِ الغَضَبِ؛ ابْتَدَأَتْ بإحراقِ القادح.

*** أوْثِقْ غضبكَ بسلسلة الحلْم؛ فإنَّه كلبٌ؛ إنْ أَفْلَتَ أتلفَ.**

• مَن سبقتْ له سابقةُ السعادة؛ دُلَّ على الدليل قبل الطَّلَب.

* لا تَسأَمْ من الوقوفِ على الباب ولو طُرِدْتَ، ولا تقطع الاعتذارَ ولو رُدِدْتَ؛ فإنْ فُتِح البابُ للمقبولين دونكَ؛ فاهْجمْ هجومَ الكذَّابينَ، وادْخُلْ دخولَ الطُّفَيلِيَّة، وابْسُطْ كَفَّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨].

* المعاصي سَدٌّ في باب الكسبِ، و«**إنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنْب يُصيبُهُ**»[١].

* الدُّنيا لا تُساوي نَقْل أقدامِكَ إليها؛ فكيف تَعْدو خلفَها؟!

* الدُّنيا جيفةٌ، والأسدُ لا يقعُ على الجِيَفِ.

*** الاجتماعُ بالإخوان قسمان:**

أحدُهُما: اجتماعٌ على مؤانسة الطبع وشُغْل الوقت؛ فهذا مَضَرَّتُهُ أرجحُ من منفعتِه، وأقلُّ ما فيه أنَّه يُفْسِدُ القلبَ ويُضيِّعُ الوقتَ.

الثاني: الاجتماعُ بهم على التعاون على أسباب النَّجاة والتَّواصي بالحقِّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٠)، وابن حبان (٨٧٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣). وصححه ابن حبان والحاكم.

والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكنَّ فيه ثلاث آفات: إحداها: تزيُّنُ بعضهم لبعض. الثانيةُ: الكلامُ والخلْطة أكثر من الحاجة. الثالثةُ: أن يصيرَ ذلك شهوةً وعادةً ينقطعُ بها عن المقصود.

وبالجملةِ فالاجتماعُ والخِلْطَةُ لِقاحٌ: إما للنفس الأمَّارةِ، وإما للقلبِ والنفس المطمئنَّةِ، والنتيجةُ مستفادةٌ من اللِّقاحِ؛ فمن طابَ لِقاحُهُ طابتْ ثمرتُهُ. وهكذا الأرواح الطيبةُ لِقاحُها من المَلكِ، والخبيثةُ لِقاحُها من الشيطان، وقد جعلَ الله سبحانه بحكمتِهِ الطَّيِّباتِ للطَّيِّبين والطَّيِّبينَ للطَّيِّباتِ، وعَكْسَ ذلك.

قاعدة

ص: ٧١

التوحيد مفزع أولياء الله وأعدائه

ليس في الوجود الممكن سببٌ واحدٌ مستقلٌّ بالتأثير، بل لا يُؤثِّرُ سببٌ البتةَ إلا بانضمامِ سببٍ آخر إليه وانتفاءِ مانع يمنعُ تأثيرهُ. هذا في الأسباب المشهودة بالعيان وفي الأسباب الغائبة والأسباب المعنويَّةِ؛ ولا يَستقلُّ بالتأثيرِ وحدَه دون توقُّفِ تأثيرِهِ علىٰ غيرِهِ إلَّا اللهُ الواحدُ القَهَّارُ؛ فلا ينبغي أن يُرْجىٰ ولا يُخافَ غيرُهُ.

وهذا برهانٌ قطعيٌّ علىٰ أنَّ تعلُّق الرجاء والخوف بغيره باطلٌ.

التوحيد مَفْزَعُ أعدائه وأوليائه:

فأمَّا أعداؤُهُ فيُنجِّيهم من كُرَب الدُّنيا وشدائِدِها؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأمَّا أولياؤُهُ فيُنَجِّيهم به من كُرُباتِ الدُّنيا والآخرةِ وشدائدِهما، ولذلك فَزِعَ إليه يونسُ فنجَّاهُ الله من تلك الظُّلُماتِ، وفزعَ إليه أتباعُ الرسل فنجَوا به ممَّا عُذِّبَ به المشركون في الدُّنيا وما أُعِدَّ لهم في الآخرة.

هذه سُنَّةُ الله في عبادِهِ؛ فما دُفِعَتْ شدائدُ الدُّنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاءُ الكَرْبِ بالتوحيد[١]، ودعوةُ ذي النونِ التي ما دعا بها مكروبٌ إلاَّ فرَّج الله كَرْبَهُ بالتوحيد[٢].

وبالله التوفيق.

ص: ٧٣

اللذة تابعة للمحبة

فائدة

اللذةُ تابعةٌ للمحبَّةِ؛ تَقْوىٰ بقوَّتِها، وتَضْعُفُ بضَعْفِها؛ فكلَّما كانت الرغبةُ في المحبوب والشوقُ إليه أقوىٰ كانتِ اللَّذَّةُ بالوصول إليه أتمَّ.

والمحبةُ والشوقُ تابعٌ لمعرفتِهِ والعلم به؛ فكلَّما كان العلمُ به أتَمَّ؛ كانتْ محبتُهُ أكملَ.

فإذا رجع كمالُ النعيم في الآخرة وكمالُ اللَّذَّةِ إلىٰ العلم والحُبِّ؛ فمَن كان بالله وأسمائِهِ وصفاتِهِ ودينِهِ أعرف كان له أحبَّ، وكانت لذَّتُه بالوصول إليه ومجاورتِهِ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ وسماع كلامِهِ أتمَّ. وكلُّ لَذَّةٍ ونعيمٍ وسرورٍ وبهجةٍ بالإضافة إلىٰ ذلك كقطرةٍ في بحرٍ.

ص: ٧٤

والله المستعان.

السير إلى الآخرة لا يكون إلا بحبس القلب واللسان

قاعدة

طالبُ اللهِ والدارِ الآخرة لا يستقيم له سَيرُه وطلبُه إلا بحَبْسَين: حبسُ قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسُهُ عن الالتفات إلىٰ غيره. وحبسُ لسانه عما لا يُفيدُ، وحبسُهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥). وهو حديث صحيح.

علىٰ ذِكْرِ الله وما يزيدُ في إيمانِهِ ومعرفتِهِ. وحبسُ جوارِحِه عن المعاصي والشهوات، وحبسُها علىٰ الواجبات والمندوبات. فلا يُفارِقُ الحبسَ حتىٰ يَلْقىٰ ربَّهُ، فيخلصُ من السجن إلىٰ أوسع فضاءٍ وأطيبه.

فائدة جليلة

ص: ٧٦

الجمع بين التقوى والخلق

جمعَ النبيُّ ﷺ بين تقوىٰ الله وحُسْنِ الخُلُقِ[١] لأنَّ تقوىٰ الله تُصلِحُ ما بين العبد وبين ربِّه، وحسنُ الخُلُقِ يُصْلِحُ ما بينه وبين خلقِهِ؛ فتقوىٰ الله تُوجِبُ له محبةَ الله، وحُسْنُ الخُلُقِ يدعو الناس إلىٰ محبَّتِهِ.

فائدة جليلة

ص: ٧٦

ترك الالتفات إلى النفس وإلى الخلق

بين العبد وبين الله والجنةِ قنطرةٌ تُقْطَعُ بخُطوتين: خطوةٍ عن نفسه، وخُطوةٍ عن الخلقِ؛ فيُسْقِطُ نفسَهُ ويُلْغيها فيما بينهُ وبين الناس، ويُسْقِطُ الناسَ ويُلْغِيهم فيما بينَهُ وبين الله؛ فلا يلتفِتُ إلَّا إلىٰ من دَلَّهُ علىٰ الله وعلىٰ الطريق الموصلة إلىٰ الله.

* صاحَ بالصحابة واعظُ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]، فجزعتْ للخوف قلوبُهم، فجرتْ من الحذر العيونُ، ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

* تزيَّنَتِ الدُّنيا لعليٍّ فقال: أنتِ طالِقٌ ثلاثًا لا رجعةَ لي فيك![٢] وكانت تكفيه واحدةٌ للسُّنَّةِ، لكنَّه جمع الثلاث؛ لئلَّا يُتَصوَّرَ للهوىٰ جوازُ المراجعة، ودينُهُ الصحيحُ وطبعُهُ السليمُ يأنفانِ من المحلِّل؛ كيف وهو أحدُ رُواةِ حديثِ: «**لعن الله المُحَلِّل**»[٣]؟!

---

(١) يشير إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٥/ ٤٩٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٤). وإسناده ضعيف، لكنه صحيح بشواهده.

قاعدة

ص: ٧٧
تأثير شهادة التوحيد عند الموت

لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثيرٌ عظيمٌ في تكفير السيِّئاتِ وإحباطِها؛ لأنَّها شهادةٌ من عبدٍ مُوقنٍ بها، عارفٍ بمضمونها، قد ماتتْ منه الشَّهواتُ، ولانتْ نفسُه المتمرِّدةُ، وانقادتْ بعد إبائها واستعصائها، وأقبلتْ بعد إعراضِها، وذَلَّتْ بعد عِزِّها، وخرج منها حِرْصُها علىٰ الدُّنيا وفضولِها، واجتمع هَمُّها علىٰ مَن أيقنتْ بالقُدوم عليهِ والمصير إليه، فوَجَّه العبدُ وَجْهَهُ بكلِّيَّتِهِ إليه، وأقبلَ بقلبِهِ ورُوحِهِ وهَمِّهِ عليه، فاستسلمَ له وحدَه ظاهرًا وباطنًا، واستوىٰ سرُّه وَعلانيتُهُ، فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبِهِ، وقد تخلَّصَ قلبُهُ من التعلُّق بغيرِهِ والالتفاتِ إلىٰ ما سواهُ، فكانت تلك الشهادة الخالصةُ خاتمةَ عملِهِ، فطهَّرَتْهُ من ذنوبه، وأدخلتْهُ علىٰ ربِّه؛ لأنَّه لَقِيَ رَبَّهُ بشهادةٍ صادقةٍ خالصةٍ، وافقَ ظاهرُها باطِنَها وسِرُّها علانيتَها.

والله المستعانُ.

ماذا يملِكُ مِنْ أمرِهِ مَن ناصِيَتُه بيد الله، ونفسُهُ بيدِهِ، وقلبُهُ بين إصبعين من أصابعِهِ يقلِّبُهُ كيف يشاء[1]، وحياتُهُ بيدِهِ، وموتُهُ بيدِهِ، وسعادتُهُ بيدِهِ، وَشقاوتُهُ بيدِهِ، وحركاتُهُ وسكناتُهُ وأقوالُهُ وأفعالُهُ بإذنِهِ ومشيئتِهِ؛ فلا يتحرَّكُ إلا بإذنِهِ، ولا يفعلُ إلَّا بمشيئتِهِ. إنْ وَكَلَهُ إلىٰ نفسه وكَلَه إلىٰ عجزٍ وضيعةٍ وتفريطٍ وذنب وخطيئةٍ، وإن وكَلَه إلىٰ غيره وكلَهُ إلىٰ منْ لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، وإن تخلَّىٰ عنه استولىٰ عليه عدوُّهُ، وجعلَهُ أسيرًا له. فهو لا غِنىٰ له عنه طَرْفَةَ عينٍ، بل هو مضطرٌّ إليه علىٰ مدىٰ الأنفاسِ في كلِّ ذرَّةٍ من ذَرَّاتِهِ باطنًا وظاهرًا، فاقتُهُ تامَّةٌ إليه. ومع ذلك فهو متخلِّفٌ عنه، مُعْرِضٌ عنه، يتبغَّضُ إليه بمعصيتِهِ، مع شدَّة

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

الضرورة إليه من كلِّ وجهٍ، قد صار لِذِكْرِهِ نَسِيًّا، واتَّخذه وراءَهُ ظِهْرِيًّا. هذا؛ وإليه مرجعُهُ، وبين يديهِ موقفُهُ؟!

* مَن عرفَ نفسَه اشتغلَ بإصلاحها عن عُيوبِ الناس، ومن عرفَ ربَّهُ اشتغل به عن هوىٰ نفسه.

*** أنفعُ العمل أنْ تغيبَ فيه عن الناس بالإخلاص، وعن نفسك بشهود المنَّة؛ فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق.**

* دخل الناسُ النارَ من ثلاثة أبوابٍ: باب شبهةٍ أورثتْ شكًّا في دين الله، وباب شهوةٍ أورثتْ تقديمَ الهوىٰ علىٰ طاعتِه ومرضاتِه وباب غضبٍ أورثت العدوان علىٰ خلقه.

*** أصولُ الخطايا كلِّها ثلاثةٌ: الكبْرُ: وهو الذي أصار إبليسَ إلى ما أصارهُ، والحرْصُ: وهو الذي أخرج آدم من الجنَّة، والحسدُ: وهو الذي جَرَّأ أحدَ ابنَي آدمَ على أخيهِ؛ فمنْ وُقِي شَرَّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشَّرَّ؛ فالكفرُ من الكبر، والمعاصي من الحرْص، والبَغْيُ والظُّلْمُ من الحسد.**

*** أخسرُ الناسِ صفقةً من اشْتَغَلَ عن الله بنفسِه، بل أخسرُ منه من اشْتَغَلَ عن نفسِه بالناس.**

فصل

ص: ٨١

لا نعيم في الدنيا إلا بالتقوى

جمع النبيُّ ﷺ في قوله: «**فاتَّقوا الله وأجْمِلوا في الطَّلَبِ**»[١] بين مصالح الدُّنيا والآخرةِ.

فنعيمُها ولَذَّتُها إنما يُنال بتقوىٰ الله.

وراحةُ القلب والبدنِ وتركُ الاهتمامِ والحِرْصِ الشَّديدِ والتَّعَب والعَناءِ والكدِّ والشَّقاءِ في طلبِ الدُّنيا إنَّما يُنالُ بالإجمال في الطَّلَبِ.

فائدة

ص: ٨٢

الجمع بين المأثم والمغرم

جَمَعَ النبيُّ ﷺ بين المَأْثَم والمَغْرم[٢]؛ فإنَّ المأثَمَ يوجِبُ خسارةَ الآخرةِ، والمغرمَ يوجِبُ خسارةَ الدُّنيا.

فائدة

ص: ٨٢

أكمل الناس هداية أعظمهم جهادا

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

عَلَّقَ سبحانَه الهدايةَ بالجهاد؛ فأكملُ الناسِ هدايةً أعظمُهم جهادًا، وأقرضُ الجهاد جهادُ النفس وجهادُ الهوى وجهادُ الشيطان وجهادُ الدُّنيا؛ فمنْ جاهدَ هذه الأربعةَ في الله هداه الله سُبلَ رضاهُ الموصلة إلى جنَّته، ومن تركَ الجهادَ فاتَهُ من الهُدى بحسب ما عطَّل من الجهاد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان (٣٢٣٩، ٣٢٤١). وصححه ابن حبان.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

ص: ٨٣

ابتلاء العبد بمختلف العداوات

فصل

ألقىٰ الله سبحانه العداوةَ بين الشيطان وبين الملَك، والعداوة بين العقل وبين الهوىٰ، والعداوة بين النفس الأمَّارةِ وبين القلب، وابتلىٰ العبدَ بذلك، وجمع له بين هؤلاءِ، وأمدَّ كلَّ حزبٍ بجنودٍ وأعوان؛ فلا تزالُ الحربُ سِجالًا ودُوَلًا بين الفريقين إلىٰ أن يستولي أحدُهما علىٰ الآخر ويكون الآخرُ مقهورًا معهُ. فإذا كانتِ النوبةُ للقلبِ والعقل والملك؛ فهنالك السُّرور، والنعيمُ، واللَّذَّةُ، والبهجةُ، والفرحُ، وقُرَّةُ العين، وطيبُ الحياةِ، وانشراحُ الصدرِ، والفوزُ بالغنائم. وإذا كانتِ النوبةُ للنفس والهوىٰ والشيطان؛ فهنالك الغمومُ، والهمومُ، والأحزانُ، وأنواعُ المكارِه، وضيقُ الصدر، وحبسُ المَلِكِ.

* أعلىٰ الهِمَم في طلب العلم طلب علمِ الكتابِ والسُّنَّةِ، والفهم عن الله ورسوله نفسَ المراد، وعلم حدود المُنْزَل، وأخَسُّ هِمَم طلَّابِ العلم قَصْرُ هِمَّتِهِ علىٰ تتبُّع شواذِّ المسائل وما لم يَنْزِلْ ولا هو واقعٌ، أو كانتْ هِمَّتُهُ معرفةَ الاختلاف وتتبُّعَ أقوال الناس، وليسَ له هِمَّةٌ إلىٰ معرفةِ الصحيح من تلك الأقوال، وقَلَّ أنْ ينتفعَ واحدٌ من هؤلاءِ بعلمِهِ.

* وأعلىٰ الهِمَم في باب الإرادة أنْ تكونَ الهِمَّةُ متعلقةً بمحبة الله والوقوفِ مع مرادِهِ الدينيِّ الأمريِّ، وأسفلُها أن تكون الهمَّةُ واقفةً مع مرادِ صاحِبها من الله؛ فهو إنما يعبدُهُ لمُرادِهِ منه لا لمرادِ الله منه؛ فالأولُ يريدُ اللهَ ويريدُ مرادَهُ، والثاني يريدُ من الله وهو فارغٌ عن إرادتِهِ.

ص: ٨٥

فصل

بين حَصْر العدو وحُصْر النصر

لمَّا خرَجَ رسولُ الله ﷺ من حَصْرِ العدوِّ دَخَل في حُصُرِ النصر، فعبثَتْ أيدي سراياهُ بالنصر في الأطراف، فطار ذِكْرُهُ في الآفاقِ، فصار الخَلْقُ معهُ ثلاثة أقسام: مؤمنٌ به، ومسالمٌ له، وخائفٌ منه.

ألقىٰ بِذْرَ الصَّبْرِ في مزرعةِ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فإذا أغصانُ النباتِ تَهْتَزُّ بخُزامىٰ ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ فدخل مكة دُخولًا ما دَخَلَهُ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه؛ حولَه المهاجرونَ والأنصارُ، لا يَبِينُ منهم إلا الحَدَقُ، والصحابةُ علىٰ مراتبِهِم، والملائكةُ فوق رؤوسِهم، وجبريلُ يتردَّدُ بينَه وبين ربِّهِ، وقد أباحَ له حَرَمَهُ الذي لم يُحِلَّهُ لأحدٍ سواه[1].

فلمَّا قايَسَ بين هذا اليوم وبين يوم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فأخْرَجوه ثانيَ اثنين؛ دخلَ وذَقَنُه يَمَسُّ قَرَبوسَ سرجِهِ، خضوعًا وذُلًّا لمن ألبسَهُ ثوبَ هذا العزِّ الذي رَفعَتْ إليه فيه الخليقةُ رؤوسَها، ومَدَّتْ إليه الملوكُ أعناقها.

فدخَلَ مكَّةَ مالكًا مؤيَّدًا منصورًا، وعلا كَعْبُ بلالٍ فوقَ الكعبةِ بعد أن كان يُجَرُّ في الرَّمضاءِ علىٰ جَمْرِ الفتنة، فنَشَرَ بَزًّا طُوِي عن القوم من يوم قولِهِ: أحدٌ أحدٌ، ورَفعَ صوتَه بالأذانِ، فأجابتهُ القبائلُ من كلِّ ناحيةٍ، فأقبلوا يؤمُّونَ الصوتَ، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وكانوا قبل ذلك يأتونَ آحادًا.

فلمَّا تكامل نصرُهُ، وبلَّغ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، وجاءه منشورُ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣]، وبعده توقيعُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١ - ٢]؛ جاءَهُ رسولُ ربِّه يُخيِّرُهُ بين المُقام في الدُّنيا وبين لقائِهِ، فاختار لقاءَ ربِّه شوقًا إليه[١]، فتزيَّنَتِ الجِنانُ ليوم قدوم روحِهِ الكريمةِ لا كزينةِ المدينة يوم قدوم الملِكِ. إذا كان عرشُ الرحمن قد اهتزَّ لموتِ بعض أتباعِهِ فرحًا واستبْشارًا بقُدوم روحِهِ[٢]؛ فكيف بقُدوم رُوح سيدِ الخلائقِ؟!

فيا منتسبًا إلىٰ غير هذا الجناب! ويا واقفًا بغير هذا الباب!

ستعلمُ يومَ الحشرِ أيَّ سَريرةٍ ... تكونُ عليها يومَ تُبلَى السَّرائرُ

ص: ٨٧

الحذر من المعصية ولو صغرت

فصل

* **يا مغرورًا بالأماني! لُعنَ إبليسُ وأُهْبطَ من منزل العزِّ بتَرْك سجدةٍ واحدةٍ أُمِر بها، وأخْرِجَ آدم من الجنَّة بلُقمةٍ تناوَلَها**، وحَجَبَ القاتل عنها بعد أن رآها عيانًا بملءِ كفٍّ من دم، وأمرَ بقتل الزَّاني أشنعَ القِتْلاتِ بإيلاج قَدْرِ الأُنْمُلَةِ فيما لا يَحِلُّ، وأمَرَ بإيساع الظَّهْرِ سياطًا بكلمةِ قذفٍ أو بقطرةٍ من مُسْكِرٍ، وأبانَ عُضوًا من أعضائكَ بثلاثةِ دراهم؛ **فلا تأمَنْهُ أن يحبِسَكَ في النار بمعصيةٍ واحدةٍ من معاصيه**؛ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]!

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) هو سعد بن معاذ، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦).

دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ[1].

وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمة لا يُلقي لها بالًا يَهْوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب[2].

* كم جاءَ الثوابُ يَسعَىٰ إليك، فوقف بالبابِ، فردَّه بوَّابُ (سوفَ) و(لعلَّ) و(عسىٰ).

فصل

ص: ٩٣

الحكمة من وقوع الذنب

* لمَّا سَلِمَ لآدمَ أصلُ العبودية لم يقْدَحْ فيه الذنبُ.

* **«ابْنَ آدمَ! لوْ لَقِيتَني بقُرابِ الأرض خطايا، ثُمَّ لقيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئًا؛ لقيتُكَ بِقُرابِها مغفرةً»**[3].

* لمَّا عَلِمَ السيِّدُ أنَّ ذنبَ عبدِهِ لم يكنْ قصدًا لمخالفتِهِ ولا قدحًا في حكمتِهِ؛ علَّمَهُ كيف يعتذرُ إليه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

* العبدُ لا يريدُ بمعصيته مخالفة سيِّدِهِ ولا الجرأةَ علىٰ محارِمِهِ. ولكنْ غلباتُ الطبع وتزيينُ النفس والشيطان وقهرُ الهوىٰ والثقةُ بالعفو ورجاءُ المغفرة. هذا من جانب العبد. وأمَّا من جانب الرُّبوبيَّةِ فجريانُ الحكم، وإظهارُ عزِّ الربوبيَّةِ وذلِّ العبوديَّةِ وكمال الاحتياج، وظُهورُ آثارِ الأسماءِ الحُسنىٰ؛ كالعفوِّ والغفورِ والتوَّاب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٧).

والحليم لمنْ جاء تائبًا نادمًا، والمنتقم والعَدْل وذي البطش الشديدِ لمَنْ أصَرَّ ولَزِمَ المعرَّة؛ فهو سبحانه يريدُ أن يُرِيَ عبدَه تفرُّدَه بالكمال ونقص العبدِ وحاجتَهُ إليه، ويُشْهِدَهُ كمال قدرتِهِ وعزَّتِهِ، وكمال مغفرتِهِ وعفوِهِ ورحمتِهِ، وكمال بِرِّهِ وسَتْرِهِ وحِلْمِهِ وتجاوزِهِ وصَفْحِهِ، وأن رحمته به إحسانٌ إليه لا معارضة، وأنه إن لم يتغمدْهُ برحمته وفضله؛ فهو هالكٌ لا محالةَ.

فلله! كم في تقدير الذنب من حكمةٍ! وكم فيه مع تحقق التوبة للعبد من مصلحة ورحمةٍ! التوبةُ من الذنب كشُرْبِ الدواءِ للعليل، ورُبَّ عِلّةٍ كانت سببَ الصحة!

لعلَّ عَتْبَكَ مَحْمودٌ عواقِبُهُ ... ورُبَّما صَحَّتِ الأجْسادُ بالعِلَلِ[1]

* **لولا تقديرُ الذنب هلكَ ابنُ آدمَ من العُجْبِ.**

* ذنبٌ يَذِلُّ به أحبُّ إليه من طاعةٍ يُدِلُّ بها عليه.

* شمعةُ النصر إنما تنزلُ في شمعدانِ الانكسارِ.

* لا يُكرِمُ العبدُ نفسَه بمثلِ إهانتِها، ولا يُعِزُّها بمثلِ ذُلِّها، ولا يُرِيحُها بمثل تَعبِها؛ كما قيل:

سأُتْعِبُ نَفْسِي أو أصادِفَ راحةً ... فإنَّ هَوانَ النَّفْسِ في كَرَمِ النَّفْسِ

ولا يُشْبِعُها بمثل جوعها، ولا يُؤْمِنُها بمِثْل خوفِها، ولا يُؤنِسُها بمثل وحشتها من كلِّ ما سوىٰ فاطرِها وبارِئها، ولا يُحيِيها بمثل إماتتها.

* سبحان الله! تزيَّنَتِ الجنةُ للخُطَّاب فجَدُّوا في تحصيل المهر، وتعرَّف ربُّ العزة إلىٰ المحبين بأسمائه وَصفاته فعَمِلُوا علىٰ اللِّقاء، وأنت مشغولٌ بالجِيَفِ.

---

(١) «ديوان المتنبي» (٣/ ٢١٠).

* الحبُّ غديرٌ في صحراءَ، ليستْ عليه جادَّةٌ؛ فلهذا قلَّ وارِدُهُ.

*** المحبُّ يَهرُبُ إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأُنْسِ بذكره كهَرَبِ الحوت إلى الماء والطفلِ إلى أمِّه.**

وأخْرُجُ من بينِ البيوتِ لعلَّني ... أحدِّثُ عنك القلبَ بالسِّرِّ خاليَا

* ليس للعابد مستراحٌ إلا تحت شجرة طُوبىٰ، ولا للمحبِّ قرارٌ إلَّا يومَ المزيد.

* اشتغِلْ به في الحياة؛ يَكْفِك ما بعد الموت.

* يا مُنْفقًا بضاعةَ العُمُرِ في مخالفة حبيبه والبعد منه! ليس في أعدائك أضرُّ عليك منك.

ما يَبْلُغُ الأعداءُ منْ جاهلٍ ... ما يَبْلُغُ الجاهلُ منْ نفسِهِ

*** سبحان الله! ظاهرُك متجمِّل بلباس التَّقوى، وباطنُك باطيةٌ لخمر الهوى، فكلَّما طيَّبْتَ الثوبَ فاحتْ رائحةُ المسكر من تحته، فتباعدَ منك الصادقون، وانحاز إليك الفاسقون.**

* يدخُل عليك لصُّ الهوىٰ وأنت في زاوية التعبُّد، فلا يَرىٰ منك طردًا له، فلا يزالُ بك حتىٰ يُخرِجك من المسجد.

* اصدقْ في الطلب؛ وقد جاءتْك المعونة.

* ليس العجبُ من قوله: ﴿يُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، إنما العجبُ من قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤].

* ليس العجبُ من فقيرٍ مسكين يُحِبُّ محسنًا إليه، إنما العجبُ من محسنٍ يحبُّ فقيرًا مسكينًا.

فصل

ص: ٩٨

تجلي الله تعالى لعباده في القرآن

القرآنُ كلامُ الله، وقد تجلَّىٰ الله فيه لعبادِهِ بصفاتِهِ:

فتارةً يتجلَّىٰ في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتَخْضَعُ الأعناقُ، وتَنكسرُ النفوسُ، وتَخْشَعُ الأصواتُ، ويذوبُ الكبرُ كما يذوب الملحُ في الماء.

وتارةً يتجلَّىٰ في صفات الجمال والكمال، وهو كمالُ الأسماء وجمال الصفات وجمالُ الأفعال الدالُّ علىٰ كمال الذات، فيَستنفِدُ حُبُّه من قلب العبد قُوَّة الحبِّ كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيُصبِح فؤادُ عبدِه فارغًا إلا من محبَّتِهِ، فإذا أراد منه الغيرُ أن يعلق تلك المحبة به؛ أَبَىٰ قلبُهُ وأحشاؤُهُ ذلك كلَّ الإباء؛ كما قيل:

يُرادُ من القلب نسيانُكُم ... وتأبى الطِّباعُ على النَّاقِلِ

فتبقىٰ المحبةُ له طبعًا لا تكلُّفًا.

وإذا تجلَّىٰ بصفات الرحمة والبرِّ واللطف والإحسان انبعثتْ قوةُ الرجاء من العبد، وانبسط أملُهُ، وقويَ طمَعُهُ، وسار إلىٰ ربِّهِ وحادي الرجاء يحدو ركابَ سيره، وكلَّما قوي الرجاءُ جَدَّ في العمل؛ كما أنَّ الباذر كلَّما قويَ طمعُهُ في المغلِّ غلَّق أرضَه بالبذْرِ، وإذا ضعُف رجاؤُهُ قصَّر في البذر.

وإذا تجلَّىٰ بصفات العدل والانتقام والغضب والسَّخط والعقوبة انقمعتِ

النفسُ الأمَّارةُ، وبَطَلَتْ أو ضَعُفَتْ قُواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص علىٰ المحرمات، وانقبضَتْ أعِنَّةُ رُعوناتِها، فأحضرت المطية حظَّها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلَّىٰ بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وشَرْعِ الشرائع؛ انبعثتْ منها قُوَّةُ الامتثال والتنفيذِ لأوامره، والتبليغِ لها، والتواصي بها، وذكرِها وتذكُّرِها، والتصديقِ بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلَّىٰ بصفات السمع والبصر والعلم انبعثَ من العبد قُوَّةُ الحياء؛ فيستحيي ربَّه أن يراهُ علىٰ ما يكره، أو يسمعُ منه ما يكره، أو يُخفِي في سريرته ما يمقتُهُ عليه، فتبقىٰ حركاتُهُ وأقوالُهُ وخواطرُهُ موزونةً بميزان الشرع، غيرَ مُهملةٍ ولا مُرسَلةٍ تحت حكم الطبيعة والهوىٰ.

وإذا تجلَّىٰ بصفات الكفاية، والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسَوْقِ أرزاقهم إليهم، ودفعِ المصائبِ عنهم، ونصرِهِ لأوليائه وحمايته لهم ومعيَّتِهِ الخاصة لهم؛ انبعثتْ من العبد قوةُ التوكل عليه، والتفويض إليه، والرِّضىٰ به في كل ما يجريه علىٰ عبده ويقيمه فيه مما يرضىٰ به هو سبحانه. والتوكُّل معنىٰ يلتئمُ من علمِ العبد بكفاية الله وحسنِ اختياره لعبده، وثقتِه به، ورضاه بما يفعله به ويختارُهُ له.

وإذا تجلىٰ بصفات العزِّ والكبرياء أعطتْ نفسُه المطمئنةُ ما وصلتْ إليه من الذُّلِّ لعظمته، والانكسار لعزَّته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينةُ والوقارُ في قلبه ولسانه وجوارحه وسمتِهِ، ويَذهبُ طيشُه وتَوْقُه وحدَّتُهُ.

وجِماعُ ذلك أنه سبحانه يَتعرَّفُ إلىٰ العبد بصفاتِ إلهيَّتِه تارةً وبصفاتِ ربوبيَّتِه تارةً:

فيُوجِب له شهودُ صفاتِ الإلهية: المحبةَ الخاصة، والشوقَ إلىٰ لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودُّد إليه بطاعته، واللَّهَجَ بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصيرُ هو وحدَه همَّهُ دون ما سواه.

ويُوجِب له شهودُ صفاتِ الربوبيَّة: التوكلَ عليه، والافتقارَ إليه، والاستعانة به، والذُّلَّ والخضوع والانكسار له.

وكمالُ ذلك أن يشهد ربوبيَّتَهُ في إلهيَّتِهِ، وإلهيَّتَهُ في ربوبيَّتِهِ، وحمده في ملكِهِ، وعزَّه في عفوِهِ، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبرَّهُ ولطفه وإحسانه ورحمته في قيُّومِيَّتِهِ، وعدلهُ في انتقامه، وجودَهُ وكرمهُ في مغفرته وسترِهِ وتجاوزِهِ، ويشهد حكمتَه ونعمته في أمره ونهيه، وعزَّهُ في رضاهُ وغضبه، وحلمهُ في إمهالِهِ، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

فصل

ص: ١٠١

فضائل أبي بكر الصديق

لما بايعَ الرسولُ ﷺ أهلَ العقبةِ أمرَ أصحابَه بالهجرة إلىٰ المدينة، فعلمتْ قريشٌ أنَّ أصحابهُ قد كَثُروا وأنَّهم سيمنعونه، فأَعملتْ آراءها في استخراج الحيل؛ فمنهم من رأىٰ الحبس، ومنهم من رأىٰ النفي، ثم اجتمع رأيُهم علىٰ القتل.

فجاء البريدُ بالخبر من السماء، وأمره أن يُفارِقَ المضجعَ، فبات عليٌّ مكانَه، ونهضَ الصِّدِّيقُ لرفقة السَّفَرِ.

فلمَّا فارقا بيوتَ مكَّةَ اشتدَّ الحَذَرُ بالصِّدِّيق، فجعل يذكُرُ الرَّصدَ فيسيرُ أمامه، وتارةً يذكُرُ الطلَب فيتأخَّرُ وراءه، وتارةً عن يمينِه، وتارةً عن شماله، إلىٰ أن انتهيا إلىٰ الغار.

فبدأ الصدِّيقُ بدخولِهِ ليكون وقايةً له إنْ كان ثَمَّ مُؤذٍ، وأنْبَتَ الله شجرةً لم تكن قبلُ، فأظلَّت المطلوب وأضلَّت الطالب، وجاءتْ عنكبوتٌ فحاذَتْ وجهَ الغار فحاكتْ ثوبَ نَسْجِها علىٰ منوال السِّتْرِ، فأُحْكِمَت الشُّقَّةُ حتىٰ عُمِّيَ علىٰ القائفِ الطلبُ، وأرسل الله حمامتين فاتَّخَذَتا هناك عُشًّا جعل علىٰ أبصار الطالبين غِشاوةً، وهذا أبلغُ في الإعجاز من مقاومة القومِ بالجنود.

فلمَّا وقف القومُ علىٰ رؤوسهم، وصار كلامُهم بسَمْعِ الرسول ﷺ والصِّدِّيق؛ قال الصِّدِّيقُ وقد اشتدَّ به القلقُ: يا رسول الله! لَو أنَّ أحدَهم نظرَ إلىٰ ما تحتَ قدميه لأبصَرنَا تحتَ قدمَيْهِ. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر! ما ظنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟**»[1].

لما رأىٰ الرسول حزنَه قد اشتدَّ -لكن لا علىٰ نفسه- قَوَّىٰ قلبَه ببشارة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فظهَر سِرُّ هذا الاقترانِ في المعيَّة لفظًا كما ظهر حكمًا ومعنىٰ؛ إذ يُقالُ: رسول الله وصاحبُ رسول الله، فلما مات قيل: خليفةُ رسولِ الله، ثمَّ انقطعتْ إضافةُ الخلافةِ بموته، فقيل: أميرُ المؤمنين.

فأقاما في الغار ثلاثًا، ثم خرجا منه ولسانُ القدرِ يقولُ: لتدخُلنَّها دُخولًا لم يَدْخُله أحدٌ قبلك ولا ينبغي لأحدٍ من بعدك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

كانت تحفةُ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠] مُدَّخرةً للصديق دونَ الجميع؛ فهو الثاني في الإسلام وفي بذل النفس وفي الزُّهد وفي الصُّحبة وفي الخلافة وفي العمر وفي سبب الموت؛ لأنَّ الرسول ﷺ مات عن أثر السُّمِّ[1]، وأبو بكر سُمَّ فمات[2].

أسلمَ علىٰ يديه من العشرة عثمان وطلحة والزُّبير وعبدُ الرحمن بن عوف وسعدُ بن أبي وقَّاص.

وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقَها أحوجَ ما كان الإسلامُ إليها؛ فلهذا جَلبتْ نفقتُهُ عليه: «**ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر**»[3].

نَطقتْ بفضله الآياتُ والأخبار، واجتمعَ علىٰ بيعتِه المهاجرون والأنصار، فيا مُبْغِضيه! في قلوبكم من ذكرِه نار، كلما تُلِيتْ فضائلُه عَلا عليهم الصُّفارُ، أتُرىٰ لم يَسمع الروافضُ الكفَّارُ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]؟!

دُعي إلىٰ الإسلام فما تلعثمَ ولا أبي، وسار علىٰ المحجَّة فما زلَّ ولا كبا، وصبر في مُدَّتِهِ من مُدىٰ العِدَا علىٰ وقع الشَّبا، وأكثر في الإنفاق فما قلَّل حتىٰ تخلَّل بالعبا، تالله لقد زاد علىٰ السَّبْكِ في كلِّ دينار دينارُ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

تنبيه

ص: ١٠٥

لكل قوة واستعداد لذة

* من خُلِقَ فيه قُوَّةٌ واستعدادٌ لشيء؛ كانت لذَّتُهُ في استعمال تلك القوة فيه. فلذةُ من خُلِقَتْ فيه قوةٌ واستعدادٌ للجماع استعمال قوتِه فيه. ولذَّةُ من خُلِقت فيه

---

(١) ذكره البخاري (٤٤٢٨) معلقا.

(٢) «مستدرك الحاكم» (٣/ ٥٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٩٤). وهو حديث صحيح.



قوةُ الغضب والتوثُّب استعمالُ قوته الغضبيَّة في متعلَّقها. ومن خُلِقتْ فيه قوةُ الأكل والشرب؛ فلذَّتُهُ باستعمال قوته فيهما. ومن خُلِقتْ فيه قوةُ العلم والمعرفة؛ فلذَّتُهُ باستعمال قوته وصرفها إلىٰ العلم. ومن خُلِقتْ فيه قوةُ الحبِّ لله والإنابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به؛ فلذتُه ونعيمهُ استعمالُ هذه القوة في ذلك. وسائرُ اللَّذَّات دون هذه اللَّذَّة مضمحلةٌ فانيةٌ، وأحمدُ عاقبتِها أن تكونَ لا له ولا عليه.

تنبيه

ص: ١٠٦
رياضة النفس بالأخلاق الحميدة

*** سبحان الله! في النفس: كِبْرُ إبليسُ، وحسدُ قابيل، وعُتُوُّ عاد، وطغيانُ ثمودَ، وجرأةُ نمرود، واستطالةُ فرعون، وبَغْيُ قارون، وقِحَةُ هامان، وهَوَى بَلْعام، وحيَلُ أصحابِ السبت، وتمرُّدُ الوليد، وجهل أبي جهل.**

وفيها من أخلاق البهائم: حرصُ الغُراب، وشَرَهُ الكلب، ورُعونةُ الطاووس، ودناءة الجُعَل، وعقوق الضبِّ، وحقدُ الجمل، ووثوبُ الفهد، وصَولةُ الأسد، وفِسقُ الفأرة، وخُبثُ الحية، وعَبَثُ القرد، وجمعُ النملة، ومكر الثعلب، وخِفَّةُ الفَرَاش، ونوم الضَّبُع.

غير أنَّ الرياضة والمجاهدة تُذْهِبُ ذلك.

فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تَصلُح سِلعتُه لعقدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فما اشترىٰ إلا سِلعةً هذَّبها الإيمانُ، فخرجتْ من طبعها إلىٰ بلدِ سكانُه التائبون العابدون.

* سَلِّم المبيعَ قبلَ أن يَتْلف في يدك فلا يَقبلُهُ المشتري!

* قد علمَ المشتري بعيبِ السِّلْعة قبل أن يشتريها فسلِّمْها ولك الأمانُ من الرد.

* قَدْرُ السِّلعة يُعرَف بقدرِ مشتريها والثمنِ المبذول فيها والمنادي عليها؛ فإذا كان المشتري عظيمًا والثمن خطيرًا والمنادي جليلًا كانت السلعةُ نفيسةً.

يـا بائعًا نفسَـه بيعَ الهوانِ لو اسْـ ـترْجعتَ ذا البيع قبلَ الفوْتِ لمْ تَخِبِ
وبائعًـا طِيـبَ عَيـشٍ مالـهُ خطرٌ بِطَيْفِ عيشٍ من الآلام مُنْتَهَبِ
غُبِنْـتَ واللهِ غبنًـا فاحشًـا ولدى يَوْمِ التَّغابُنِ تَلْقَى غايةَ الحرَبِ
ووارِدًا صَفْـوَ عيـشٍ كُلُّـهُ كـدرٌ أمامكَ الورْدُ حقًّا ليسَ بالكذبِ

* يا من غُذِيَ بِلبَانِ البِرِّ، وقُلِّبَ بأيدي الألطاف! كلُّ الأشياء شجرةٌ وأنت الثمرة، وصورةٌ وأنت المعنىٰ، وصَدَفٌ وأنت الدُّرُّ، ومَخِيضٌ وأنت الزُّبْدُ.

* لو عرفتَ قدْرَ نفسِك عندنا ما أهنتَها بالمعاصي، إنما أبْعَدْنا إبليسَ إذْ لم يَسجُدْ لك وأنتَ في صُلبِ أبيك؛ فواعجبًا! كيف صالحتَهُ وتركتَنا؟!

* لو صحَّتْ محبتُّك لاستوحشتَ ممَّن لا يُذكِّرُك بالحبيب.

* **لو استنشقتَ ريحَ الأسحار لأفاقَ منك قلبُك المخمورُ.**

* من استطال الطريقَ ضعُف مشيُهُ.

* من لاح له حالُ الآخرة هانَ عليه فراقُ الدُّنيا.

* تَذكَّرْ حلاوةَ الوصالِ يَهُنْ عليك مُرُّ المجاهدة.

* قد علمتَ أين المنزلُ؛ فاحْدُ لها تَسِرْ.

* أعلىٰ الهِمَم هِمَّةُ من استعدَّ صاحبُها للقاءِ الحبيب، وقَدَّمَ التَّقادِمَ بين يدي المُلْتَقىٰ؛ فاستبشر بالرِّضىٰ عند القدوم، ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

* الجنَّةُ تَرضَىٰ منك بأداء الفرائض، والنارُ تَندفعُ عنك بتَرْكِ المعاصي، والمحبَّةُ لا تَقنَعُ منك إلا ببذل الرُّوح.

* لله ما أحلَىٰ زمانًا تَسعَىٰ فيه أقدامُ الطاعةِ علىٰ أرض الاشتياق.

* لمَّا سَلَّم القومُ النفوسَ إلىٰ رائضِ الشرع؛ علَّمَها الوِفاقَ في خلاف الطبع، فاستقامتْ مع الطاعة؛ كيف دارتْ دارتْ معها.

فصل

ص: ١١٣

كلما غالب العبد شهوته زادت مرتبته

* جُمِعَ فيك عقلُ الملك، وشهوةُ البهيمة، وهوىٰ الشيطان، وأنت للغالب عليك من الثلاثة: إن غلبتَ شهوتَك وهواكَ زِدتَ علىٰ مرتبة مَلَكٍ، وإن غلبك هواكَ وشهوتُك نَقَصْتَ عن مرتبة كلبٍ.

* قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]؛ هذا من ألطفِ خطاب القرآن وأشرفِ معانيه.

وإنَّ المؤمن دائمًا مع الله علىٰ نفسه وهواهُ وشيطانه وعدوِّ ربِّه، وهذا معنىٰ كونه من حزب الله وجنده وأوليائِهِ؛ فهو مع الله علىٰ عدوِّهِ الداخل فيه والخارج عنه؛ يُحارِبُهم ويُعادِيهم ويُغْضِبُهم له سبحانه؛ كما يكونُ خواصُّ الملك معه علىٰ حربِ أعدائِهِ، والبعيدون منه فارغون من ذلك غيرُ مهتمِّين به.

والكافرُ مع شيطانه ونفسه وهواه علىٰ ربِّه.

وعباراتُ السَّلَفِ علىٰ هذا تدورُ:

ذكر ابنُ أبي حاتم(١) عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جُبَيْرٍ قال: عونًا للشيطان علىٰ ربِّه بالعداوةِ والشِّركِ.

وقال الليثُ عن مجاهدٍ قال: يُظاهِرُ الشيطانَ علىٰ معصيةِ الله؛ يُعِينُه عليها.

وقال زيدُ بن أسلم: ظهيرًا أي: مُواليًا.

والمعنىٰ: أنَّه يُوالي عدُوَّهُ علىٰ معصيتِهِ والشركِ به، فيكونُ مع عدوِّهِ مُعِينًا له علىٰ مَساخِطِ ربِّه.

فالمعيَّةُ الخاصةُ التي للمؤمن مع ربِّه وإلهِهِ قد صارتْ لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقُربانه، ولهذا صدَّر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادةُ هي الموالاةُ والمحبةُ والرِّضىٰ بمعبوديهم المتضمِّنةُ لمعيَّتِهم الخاصَّة، فظاهَروا أعداءَ الله علىٰ مُعاداتِهِ ومخالفته ومساخطه، بخلاف وَليِّه سبحانه؛ فإنَّه معه علىٰ نفسه وشيطانه وهواهُ.

وهذا المعنىٰ من كنوز القرآن لمن فَهِمهُ وعَقَلهُ.

وبالله التوفيقُ.

*** أصولُ المعاصي كلِّها -كبارها وصغارها- ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغير الله، وطاعةُ القوة الغضبيَّة، والقوة الشهوانيَّة.**

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١١).

وهي: الشركُ، والظلمُ، والفواحشُ.

فغايةُ التعلُّق بغير الله: الشركُ وأن يُدْعى معه إلهٌ آخرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّة الغضبيَّة: القتلُ، وغايةُ طاعةِ القوَّة الشهوانيَّة: الزِّنى.

ولهذا جمعَ الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الثلاثةُ يدعو بعضُها إلىٰ بعضٍ: فالشركُ يدعو إلىٰ الظُّلم والفواحش؛ كما أنَّ الإخلاص والتوحيد يَصْرِفُهما عن صاحبه، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾[1] [يوسف: ٢٤]؛ فالسوءُ العشقُ، والفحشاءُ الزِّنىٰ.

وكذلك الظلمُ يدعو إلىٰ الشرك والفاحشة؛ فإنَّ الشرك أظلمُ الظلم؛ كما أنَّ أعدل العدل التوحيدُ؛ فالعدلُ قرينُ التوحيد، والظلمُ قرينُ الشِّرْكِ، ولهذا يجمعُ سبحانهُ بينهما: أمّا الأولُ ففي قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأمّا الثاني فكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والفاحشةُ تدعو إلىٰ الشرك والظُّلم، ولا سيَّما إذا قَويتْ إرادتُها ولم تحصُلْ إلا بنوع من الظُّلم والاستعانة بالسحر والشيطان، وقد جَمعَ سبحانه بين الزِّنىٰ والشرك في قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

---

(١) بكسر اللام علىٰ قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، فإن الاستدلال بهذه القراءة.

فهذه الثلاثةُ يَجُرُّ بعضُها إلىٰ بعض ويأمُرُ بعضُها ببعضٍ.

ولهذا كلَّما كان القلبُ أضعفَ توحيدًا وأعظمَ شركًا كان أكثرَ فاحشةً وأعظمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعشقًا لها.

ونظيرُ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٦ - ٣٧]؛ فأخبر أنَّ ما عنده خيرٌ لمن آمن به وتوكَّل عليه، وهذا هو التوحيد، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾؛ فهذا اجتنابُ داعي القوة الشهوانيَّة، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٧]؛ فهذا مخالفةُ القوة الغضبيَّة؛ فجمعَ بين التوحيد والعفَّةِ والعدل التي هي جِماعُ الخيرِ كلِّه.

فصل

ص: ١١٨
أنواع هجر القرآن

هَجْرُ القرآن أنواعٌ:

أحدها: هجرُ سَماعِهِ والإيمان به والإصغاءِ إليه.

والثاني: هجرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ، وإنْ قرأهُ وآمنَ به.

والثالث: هجرُ تحكيمِه والتحاكمِ إليه في أصول الدِّين وفروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يُفِيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتهُ لفظيَّةٌ لا تحصِّلُ العلمَ.

والرابع: هجرُ تدبُّرِه وتفهُّمِه ومعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

والخامس: هجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها؛

فَيَطلبُ شِفاءَ دائِهِ من غيره، ويَهجُرُ التداويَ به.

وكلُّ هذا داخلٌ في قولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإنْ كان بعضُ الهَجْرِ أهونَ من بعضٍ.

وكذلك الحَرَجُ الذي في الصدور منه.

ص: ١١٩

فائدة

كمال النفس في أمرين

كمالُ النفس المطلوبُ ما تضمَّن أمرين:

أحدُهما: أن يَصيرَ هيئةً راسخةً وصفةً لازمةً لها.

الثاني: أن يكون صفةَ كمالٍ في نفسه.

فإذا لم يكن كذلك لم يكنْ كمالًا؛ فلا يليقُ بمن يَسعَىٰ في كمال نفسه المنافسةُ عليه، ولا الأسفُ علىٰ فوْتِهِ.

وذلك ليس إلا معرفة بارئِها وفاطرِها ومعبودِها وإلهِها الحقِّ الذي لا صلاحَ لها ولا نعيمَ ولا لذَّةَ إلَّا بمعرفته وإرادةِ وجهه وسلوكِ الطريقِ الموصلةِ إليه وإلىٰ رضاهُ وكرامته، وأن تعتادَ ذلك فيصيرَ لها هيئةً راسخةً لازمة.

وما عدا ذلك من العلوم والإرادات والأعمال؛ فهي بينَ ما لا يَنفعُها ولا يُكمِّلُها وما يَعُودُ بضررها ونقصِها وألمِها، ولا سيَّما إذا صار هيئةً راسخةً لها؛ فإنَّها تُعذَّبُ وتتألَّمُ به بحسب لزومِهِ لها.

فليَتَدبَّرْ من يُرِيدُ سعادَةَ نفسه ولذَّتَها هذه النُّكْتَةَ؛ فأكثرُ هذا الخلقِ إنما يَسْعَون في حرمانِ نفوسهم وألمِها وحسرتِها ونقصِها من حيث يظنُّون أنَّهم يُريدون سعادتَها

ونعيمَها؛ فلذَّتُها بحسبِ ما حصلَ لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك، وألمُها وحسرتُها بحسبِ ما فاتَها من ذلك.

وبالله التوفيق.

ص: ١٢١

تكفل الله تعالى بمن أخلص له همّه

فائدة جليلة

إذا أصبحَ العبدُ وأمسَىٰ وليس هَمُّه إلا الله وحده؛ تَحَمَّلَ اللهُ سبحانه حوائجَه كلَّها، وحَمَلَ عنه كلَّ ما أهمَّهُ، وفرَّغَ قلبَه لمحبَّتِه ولسانَه لذكرِه وجوارحَه لطاعتِه.

وإن أصبح وأمسىٰ والدُّنيا همُّهُ؛ حَمَّلَهُ اللهُ همومَها وغُمومَها وأنكادَها، وَوَكَلَه إلىٰ نفسه، فشَغَلَ قلبَه عن محبَّتِهِ بمحبَّةِ الخلق، ولسانَهُ عن ذكرِه بذكرهم، وجوارحَه عن طاعتِه بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يَكْدَحُ كَدْحَ الوحشِ في خدمة غيره؛ كالكِيرِ ينفُخ بطنَه ويَعصرُ أضالِعَه في نفعِ غيره.

فكلُّ من أعرضَ عن عبوديَّة اللهِ وطاعته ومحبَّته بُلِيَ بعبوديَّة المخلوق ومحبَّته وخدمته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

ص: ١٢٢

العلم الصحيح ما وافق الحقيقة

فائدة

العلمُ: نَقْلُ صورةِ المعلومِ من الخارج وإثباتُها في النفس.

والعمل: نقلُ صورةٍ عمليَّةٍ من النفس وإثباتُها في الخارج.

فإن كان الثابتُ في النفس مطابقًا للحقيقة في نفسها فهو علمٌ صحيحٌ.

وكثيرًا ما يَثبت ويَتراءىٰ في النفس صُورٌ ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ، فيظنُّها الذي قد

أثْبتَها في نفسه علمًا، وإنَّما هي مقدرةٌ لا حقيقة لها، وأكثرُ علوم الناس من هذا الباب.

وما كان منها مطابقًا للحقيقة في الخارج فهو نوعان:

نوعٌ تكملُ النفسُ بإدراكه والعلم به، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكُتُبِه وأمرِه ونهيه.

ونوعٌ لا يَحصلُ للنفس به كمالٌ، وهو كلُّ علم لا يَضرُّ الجهلُ به؛ فإنَّه لا ينفع العلم به، وكان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله من علم لا ينفع[1]. وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة التي لا يَضُرُّ الجهلُ بها شيئًا؛ كالعلم بالفلك ودقائقه ودرجاتِه وعددِ الكواكب ومقاديرها، والعلم بعدد الجبال وألوانها ومساحاتها ونحو ذلك.

فشرفُ العلم بحسب شرفِ معلومه وشدةِ الحاجة إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك.

وأمَّا العمل فآفتُهُ عدمُ مطابقته لمراد الله الدينيِّ الذي يُحبُّه الله ويرضاهُ، وذلك يكون من فساد العلم تارةً، ومن فساد الإرادة تارةً:

ففسادُهُ من جهة العلم: أن يعتقد أن هذا مشروع محبوبٌ لله وليس كذلك، أو يعتقد أنَّه يُقرِّبُه إلىٰ الله وإن لم يكن مشروعًا، فيَظُنَّ أنه يَتقرَّبُ إلىٰ الله بهذا العمل وإنْ لم يَعلمْ أنَّه مشروعٌ.

وأمَّا فسادُهُ من جهة القصد فأنْ لا يَقصِدَ به وجهَ الله والدارَ الآخرة، بل يَقصد به الدُّنيا والخلْق.

وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيلَ إلىٰ السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

به الرسول في باب العلم والمعرفة، وإرادةِ وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة؛ فمتىٰ خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسدَ علمُهُ وعملُهُ.

ص: ١٢٤

قاعدة

الإيمان له ظاهر وباطل

الإيمانُ له ظاهرٌ وباطنٌ: وظاهرُهُ قولُ اللسان وعملُ الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقيادُهُ ومحبتُهُ.

فلا يَنفعُ ظاهرٌ لا باطنَ له، وإن حقَنَ به الدِّماء وعصَمَ به المال والذُّرِّيَّةَ.

ولا يُجزِئُ باطنٌ لا ظاهرَ له إلّا إذا تعذَّرَ بعجزٍ أو إكراهٍ وخوفِ هلاكٍ.

ص: ١٢٤

قاعدة

التوكل نوعان

التوكُّلُ علىٰ الله نوعان:

أحدُهما: توكُّلٌ عليه في جَلْبِ حوائج العبد وحظوظِه الدُّنيويَّةِ أو دَفْعِ مكروهاتِهِ ومصائبه الدُّنيويَّةِ.

والثاني: التوكُّل عليه في حصول ما يُحِبُّه هو ويَرضاهُ من الإيمان واليقين والجهادِ والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يُحْصِيه إلا الله، فمتىٰ توكَّل عليه العبدُ في النوع الثاني حقَّ توكُّلِهِ كفاهُ النوعَ الأولَ تمامَ الكفايةِ. ومتىٰ توكَّل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضًا، لكنْ لا يكونُ له عاقبةُ المتوكِّل عليه فيما يُحِبُّه ويرضاهُ.

فأعظمُ التوكُّل عليه: التوكُّلُ في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعةِ الرسول، وجهادِ أهل الباطل؛ فهذا توكُّلُ الرُّسُلِ وخاصَّةِ أتباعِهم.



وسرُّ التوكُّل وحقيقتهُ هو اعتمادُ القلب علىٰ الله وحدَه: فلا يَضُرُّهُ مباشرةُ الأسباب؛ مع خلوِّ القلب من الاعتماد عليها والركونِ إليها، كما لا ينفعه قوله: توكَّلْتُ علىٰ الله؛ مع اعتمادِهِ علىٰ غيره ورُكونِهِ إليه وثقتِهِ به. فتوكُّلُ اللسانِ شيءٌ، وتوكلُ القلب شيءٌ؛ كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيءٌ، وتوبة القلب وإن لم يَنطِق اللسانُ شيءٌ. فقول العبد: توكلتُ علىٰ الله مع اعتماد قلبِهِ علىٰ غيره مثلُ قولِهِ: تُبتُ إلىٰ الله وهو مُصِرٌّ علىٰ معصيته مرتكبٌ لها.

فائدة

ص: ١٢٦

العارف يشكو إلى الله وحده

الجاهلُ يشكو الله إلىٰ الناس، وهذا غايةُ الجهل بالمشكُوِّ والمشكُوِّ إليه؛ فإنَّه لو عرف ربَّه لما شكاهُ، ولو عرفَ الناسَ لما شكَا إليهم.

والعارفُ إنما يشكو إلىٰ الله وحده.

وأعرفُ العارفين من جعلَ شكواه إلىٰ الله من نفسه لا من الناس؛ فهو يَشكو من مُوجبات تسليطِ الناس عليه؛ فهو ناظرٌ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فالمراتبُ ثلاثةٌ: أخسُّها: أن تشكوَ الله إلىٰ خلقه، وأعلاها: أن تشكوَ نفسَك إليه، وأوسطها: أن تشكو خلقه إليه.

قاعدة جليلة

ص: ١٢٧

أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول

قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فتضمنت هذه الآيةُ أمورًا:

أحدُها: أن الحياة النافعة إنما تَحصُلُ بالاستجابة لله ورسوله؛ فمن لم تَحصُلْ له هذه الاستجابةُ فلا حياةَ له، وإن كانت له حياةٌ بهيميَّةٌ مشتركةٌ بينه وبين أرذلِ الحيوانات.

ولهذا كان أكملُ الناسِ حياةً أكملَهم استجابةً لدعوة الرسول؛ فإنَّ كلَّ ما دعا إليه ففيه الحياةُ، فمن فاتَه جزءٌ منه فاتَه جزءٌ من الحياة، وفيه من الحياة بحسبِ ما استجابَ للرسول.

والإنسانُ مضطرٌّ إلىٰ نوعين من الحياة:

حياةُ بدنه التي بها يدرِك النافعَ والضارَّ ويُؤْثِرُ ما ينفعُهُ علىٰ ما يضُرُّهُ، ومتىٰ نقصَتْ فيه هذه الحياةُ ناله من الألم والضعف بحسب ذلك، ولذلك كانت حياةُ المريض والمحزون وصاحبِ الهمِّ والغمِّ والخوفِ والفقر والذُّلِّ دون حياةِ من هو مُعافىً من ذلك.

وحياةُ قلبه وروحه التي بها يُميِّزُ بين الحقِّ والباطل والغَيِّ والرَّشاد والهدىٰ والضلال، فيختارُ الحقَّ علىٰ ضدِّه، فتُفِيدُ هذه الحياةُ قوَّةَ التمييز بين النافع والضَّارِّ في العلوم والإرادات والأعمال، وتُفيدُهُ قوَّةَ الإيمان والإرادةِ والحبِّ للحقِّ، وقوةَ البغضِ والكراهةِ للباطل؛ فشعورُه وتمييزُه وحبُّه ونفرتُهُ بحسب نصيبه من هذه

الحياة؛ كما أنَّ البدنَ الحيَّ يكونُ شعورُهُ وإحساسُهُ بالنافع والمؤلم أتمَّ، ويكونُ ميلُهُ إلىٰ النافع ونفرتُهُ عن المؤلم أعظمَ؛ فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب؛ فإذا بَطلتْ حياتُه بطلَ تمييزُه، وإن كان له نوعُ تمييزٍ لم يكن فيه قوةٌ يُؤثِرُ بها النافعَ علىٰ الضَّارِّ.

كما أنَّ الإنسان لا حياةَ له حتىٰ يَنفُخَ فيه الملَكُ -الذي هو رسولُ الله- من روحِه فيصيرَ حيًّا بذلك النفخ وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياةَ لروحه وقلبه حتىٰ يَنفُخَ فيه الرسولُ ﷺ من الرُّوح الذي أُلْقِي إليه؛ قال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]؛ فأخبر أَنَّ وحيَهُ روحٌ ونورٌ.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجَمعَ له بين النور والحياة؛ كما جَمعَ لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال: ٢٤].

المشهورُ في الآية أنه يَحُول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويَحُول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته. وهذا قولُ ابن عباسٍ وجمهور المفسرين.

وفي الآية قولٌ آخرُ: إن المعنىٰ أنه سبحانه قريبٌ من قلبه، لا تخفَىٰ عليه

خافيةٌ؛ فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحديُّ عن قتادة. وكأنَّ هذا أنسبُ بالسياق؛ لأنَّ الاستجابة أصلها بالقلب؛ فلا تَنفعُ الاستجابة بالبدن دون القلب؛ فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه؛ فيعلم هل استجاب له قلبه؟ وهل أضمرَ ذلك أو أضمرَ خلافه؟

ص: ١٣٢

فائدة جليلة

أمر الشارع ونهيه هو معيار النفع والضر

قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله ﷻ: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية.

والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية.

فالعبد يكرهُ مواجهةَ عدوه بقوته الغضبية خشيةً علىٰ نفسه منه، وهذا المكروهُ خيرٌ له في معاشه ومعاده، ويُحِبُّ الموادعةَ والمتاركةَ، وهذا المحبوبُ شرٌّ له في معاشه ومعاده.

وكذلك يكرهُ المرأةَ لوصفٍ من أوصافها، وله في إمساكها خيرٌ كثير لا يَعرِفُه، ويُحِبُّ المرأة لوصفٍ من أوصافها، وله في إمساكها شرٌّ كثيرٌ لا يَعرِفهُ.

فالإنسانُ -كما وصفه به خالقُه- ظَلومٌ جَهولٌ؛ فلا ينبغي أن يجعلَ المعيارَ علىٰ ما يضره وينفعه ميلَه وحبَّه ونفرتَه وبُغضَه، بل المعيارُ علىٰ ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه؛ فأنفعُ الأشياءِ له علىٰ الإطلاق طاعةُ ربه بظاهره وباطنه، وأضرُّ الأشياء عليه علىٰ الإطلاق معصيتُه بظاهره وباطنه؛ فإذا قام بطاعته وعبوديَّته مخلصًا له

فكلُّ ما يَجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلَّىٰ عن طاعته وعبوديته فكلُّ ما هو فيه من محبوبٍ هو شرٌّ له.

فمن صحَّتْ له معرفةُ ربه والفقهُ في أسمائه وصفاته؛ عَلِم يقينًا أن المكروهات التي تُصِيبه والمِحَن التي تَنزل به فيها ضروبٌ من المصالح والمنافع التي لا يُحصِيها علمُه ولا فِكرتُه، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يُحِب؛ فعامةُ مصالح النفوس في مكروهاتها؛ كما أن عامةَ مَضارِّها وأسباب هَلَكَتِها في محبوباتها.

ومتىٰ ظَفِر العبدُ بهذه المعرفة سَكنَ في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يُشبِه نعيمُها إلا نعيم جنة الآخرة؛ فإنه لا يزال راضيًا عن ربه، والرِّضَىٰ جنةَ الدُّنيا ومُستَراحُ العارفين؛ فإنه طِيبُ النفس بما يَجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له وطمأنينتُها إلىٰ أحكامه الدينية، وهذا هو الرِّضىٰ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا، وما ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ من لم يَحصُل له ذلك[1]. وهذا الرِّضىٰ هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسنِ اختياره؛ فكلَّما كان بذلك أعرفَ كان به أرضَىٰ.

ص: ١٣٦

فائدة

لا رغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا

لا تَتِمُّ الرغبةُ في الآخرة إلا بالزُّهد في الدُّنيا.

ولا يستقيم الزُّهدُ في الدُّنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظرٌ في الدُّنيا وسرعةِ زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخِسَّتها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغُصَصِ والنَّغَصِ والأنكادِ، وآخِرُ ذلك الزوالُ والانقطاعُ، مع ما يُعقِبُ من الحسرة والأسف؛ فطالبُها لا يَنفكُّ من هَمٍّ قبل حصولها،

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٤).

وهَمٍّ في حالِ الظَّفرِ بها، وغمٍّ وحزنٍ بعد فواتها. فهذا أحدُ النظرين.

النظرُ الثاني في الآخرة، وإقبالِها ومجيئها ولا بُدَّ، ودوامِها وبقائها، وشرفِ ما فيها من الخيرات والمسرَّات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ها هنا؛ فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١٧]؛ فهي خيراتٌ كاملةٌ دائمةٌ، وهذه خيالاتٌ ناقصةٌ منقطعةٌ مضمحلَّةٌ.

فإذا تَمَّ له هذانِ النظرانِ آثرَ ما يَقتضِي العقلُ إيثارَهُ، وزَهِدَ فيما يقتضي الزُّهدَ فيه.

ولهذا نبذَها رسولُ الله ﷺ وراءَ ظَهْرِه هو وأصحابُه، وصَرَفُوا عنها قلوبَهم، واطَّرحُوها ولم يَألَفوها، وهَجَروها ولم يَميلوا إليها، وعَدُّوها سِجْنًا لا جنة[1]، فزَهِدوا فيها حقيقةَ الزُّهد، قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدُّنيا؟ إنما أنا كراكبٍ قال في ظلِّ شجرةٍ ثُمَّ راح وتركَها**»[2].

وقال: «**ما الدُّنيا في الآخرة إلَّا كما يُدْخِلُ أحدُكُمْ إصْبعَهُ في اليَمِّ؛ فلينظُرْ بِمَ ترجِعُ؟**»[3].

وقال خالِقُها سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٤ - ٢٥]، فأخبر عن خِسَّة الدنيا وزَهَّدَ فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها.

---

(١) إشارة إلىٰ الحديث أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩). وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويكفي في الزُّهد في الدُّنيا:

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

وقوله: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥].

والله المستعان وعليه التكلان.

قاعدة

ص: ١٤١

كل خير أصله من توفيق الله تعالى للعبد

أساسُ كل خيرٍ أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ فتتيقَّن حينئذٍ أن الحسناتِ من نِعَمِه، فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خِذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحولَ بينك وبينها ولا يَكِلَكَ في فعل الحسنات وترك السيئات إلىٰ نفسك.

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شرٍّ فأصله خذلانه لعبده.

وأجمعوا أن التوفيق أن لا يَكلَك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخُليَ بينك وبين نفسك.

فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد؛ فمفتاحه الدعاء

والافتقارُ وصدقُ اللَّجأ والرغبة والرهبة إليه؛ فمتى أعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مُرْتجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: إنِّي لا أَحمِلُ همَّ الإجابة، ولكن همّ الدُّعاء؛ فإذا أُلهِمتُ الدُّعاءَ فإن الإجابة معه.

وعلىٰ قدر نيَّة العبد وهمَّتِهِ ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقُه سبحانه وإعانته؛ فالمعونة من الله تَنزِلُ علىٰ العباد علىٰ قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخِذلان يَنزِل عليهم علىٰ حسب ذلك.

*** ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة القلب والبعد عن الله.**

* قسوةُ القلب من أربعة أشياء إذا جاوزتْ قدرَ الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة.

* كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعامُ والشرابُ؛ فكذلك القلبُ إذا مرض بالشهوات لم تَنْجَعْ فيه المواعظُ.

*** من أراد صفاءَ قلبه فليُؤْثِر الله على شهوته.**

*** القلوب المتعلقةُ بالشهوات محجوبةٌ عن الله بقدر تعلُّقها بها.**

* شَغلوا قلوبهم بالدُّنيا، ولو شَغلوها بالله والدار الآخرة لجالتْ في معاني كلامه وآياته المشهودة، ورَجعتْ إلىٰ أصحابها بغرائب الحكم وطُرَفِ الفوائد.

* خَرابُ القلبِ من الأمن والغفلة، وعِمارتُهُ من الخشية والذِّكْرِ.

*** الشوقُ إلى الله ولقائه نسيمٌ يَهُبُّ على القلب يُرَوِّحُ عنه وَهَجَ الدُّنيا.**

* من وَطَّنَ قلبَه عند ربِّه سكنَ واستراح، ومن أرسله في الناس اضطربَ واشتد به القلقُ.

* لا تَدخلُ محبةُ الله في قلب فيه حبُّ الدُّنيا إلا كما يدخل الجملُ في سَمِّ الإبرة.

* وإذا أحبَّ الله عبدًا اصطنَعه لنفسِه، واجتباهُ لمحبَّتِهِ، واستخلصه لعبادته، فشَغلَ همَّهُ به، ولسانهُ بذكره، وجوارحَهُ بخدمته.

*** القلب يَمرضُ كما يمرض البدنُ، وشفاؤهُ في التوبة والحمْية، ويَصْدَأ كما تَصْدأ المرآةُ، وجلاؤهُ بالذكر، ويَعْرَى كما يَعْرَى الجسمُ، وزينتُهُ التَّقوى، ويجوعُ ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفةُ والمحبة والتوكل والإنابة والخدمةُ.**

* إياك والغفلةَ عمَّن جعلَ لحياتك أجلًا، ولأيَّامِك وأنفاسِك أمدًا، ومن كل ما سواه بُدٌّ ولا بُدَّ لك منه.

*** من شُغل بنفسه شُغلَ عن غيره، ومن شُغل بربِّه شُغل عن نفسه.**

*** الإخلاصُ: هو ما لا يعلمه مَلَكٌ فيكتبه، ولا عدوٌّ فيُفسدهُ، ولا يُعجَبُ به صاحبه فيُبطله.**

* الرِّضىٰ سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

* الناس في الدُّنيا معذَّبون علىٰ قدر هممهم بها.

*** للقلب ستة مواطنَ يجولُ فيها لا سابعَ لها؛ ثلاثةٌ سافلة، وثلاثةٌ عاليةٌ: فالسافلةُ: دنيا تتزيَّنُ له، ونفسٌ تحدِّثُه، وعدوٌّ يوسوسُ له. فهذه مواطنُ الأرواح**

السافلة التي لا تزالُ تجولُ فيها. والثلاثة العاليةُ: علمٌ يتبيَّنُ له، وعقلٌ يرشدُه، وإلهٌ يعبدُه. والقلوب جوَّالةٌ في هذه المواطن.

* اتِّباعُ الهوىٰ وطولُ الأمل مادةُ كلِّ فسادٍ؛ فإنَّ اتِّباعَ الهوىٰ يُعمِي عن الحقِّ معرفةً وقصدًا، وطول الأمل يُنسِي الآخرةَ ويصُدُّ عن الاستعداد لها.

* إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا جعله معترفًا بذنبه ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده زاهدًا فيما عند غيره، محتملًا لأذىٰ غيره. وإنْ أراد به شرًّا عكس ذلك عليه.

* **الهمَّةُ العليَّةُ لا تزالُ حائمةً حول ثلاثة أشياء: تعرُّفٌ لصفةٍ من الصفات العليا تزدادُ بمعرفتها محبةً وإرادةً، وملاحظةٌ لمنَّةٍ تزدادُ بملاحظتها شُكرًا وطاعة، وتذكُّرٌ لذنب تزدادُ بتذكُّرِه توبةً وخشية؛ فإذا تعلَّقت الهمةُ بسوى هذه الثلاثة جالتْ في أودية الوساوس والخطرات.**

فائدة جليلة

ص: ١٤٥

العالم الذي يؤثر الدنيا لا بد أن يقول غير الحق

كلُّ من آثر الدُّنيا من أهل العلم واستحبَّها؛ فلا بدَّ أن يقول علىٰ الله غيرَ الحقِّ؛ في فتواه وحكمِه، في خبرِه وإلزامِه؛ لأنَّ أحكام الربِّ سبحانه كثيرًا ما تأتي علىٰ خلاف أغراض الناس، ولا سيَّما أهل الرئاسة والذين يتَّبعون الشَّهوات؛ فإنَّهم لا تَتِمُّ لهم أغراضُهم إلَّا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا؛ فإذا كان العالم والحاكم مُحِبًّا للرئاسة، متَّبعًا للشَّهوات لم يتمَّ له ذلك إلا بدفع ما يضادُّه من الحقِّ، ولا سيَّما إذا قامت له شبهةٌ، فتتَّفقُ الشبهةُ والشهوةُ، ويَثُورُ الهوىٰ، فيَخفَىٰ الصوابُ، ويَنطمِسُ وجهُ الحقِّ! وإن كان الحقُّ ظاهرًا لا خفاءَ به ولا شبهةَ فيه أقدمَ علىٰ مخالفته، وقال: لي مَخرجٌ بالتوبة.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فهذه آفةُ العلماء إذا آثروا الدُّنيا واتَّبعوا الرئاسات والشَّهوات.

وهذه الآياتُ فيهم إلىٰ قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

فهذا مَثَلُ عالمِ السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

فصل

ص: ١٤٩

ضرر العابد الجاهل في إعراضه عن العلم

فهذا حالُ العالم المُؤثِر الدُّنيا علىٰ الآخرة.

وأما العابد الجاهلُ فآفتُهُ من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووَجْدِه وما تهواه نفسه.

ولهذا قال سفيان بن عُيينة وغيره: احذروا فتنةَ العالم الفاجر وفتنةَ العابد الجاهل؛ فإنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ.

فهذا بجهله يَصُدُّ عن العلم وموجبه، وذاك بغيِّه يدعو إلىٰ الفُجور.

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦ - ١٧].

ص: ١٥١

أهل المراتب العالية هم أصحاب العلم والإيمان

فائدة عظيمة

أفضلُ ما اكتسبتْه النفوسُ وحصَّلتْهُ القلوب ونال به العبدُ الرِّفْعةَ في الدُّنيا والآخرة هو العلم والإيمان.

ولهذا قرنَ بينهما سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه والمؤهَّلون للمراتب العالية.

ولكنَّ أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمَّىٰ العلم والإيمان اللذين بهما السعادة والرفعةُ وفي حقيقتهما، فالكتبُ كثيرةٌ جدًّا، والكلام والجدالُ والمُقدَّراتُ الذِّهْنيَّةُ كثيرةٌ، والعلم بمعزلٍ عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله. قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال في القرآن: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]؛ أي: وفيه علمه.

ولمَّا بَعُدَ العهدُ بهذا العلم؛ آلَ الأمرُ بكثيرٍ من الناس إلىٰ أن اتَّخذوا هواجسَ الأفكار وسوانحَ الخواطر والآراء علمًا، ووضعوا فيها الكتبَ، وأنفقوا فيها الأنفاسَ، فضيَّعوا فيها الزمان، وملؤوا بها الصحفَ مدادًا والقلوب سوادًا.

ص: ١٥٤
الإيمان المفصل هو إيمان خواص الأمة

فصل

وأما الإيمان فأكثر الناس -أو كلُّهم- يَدَّعونه، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وأكثرُ المؤمنين إنما عندهم إيمانٌ مجملٌ، وأما الإيمانُ المفصلُ بما جاء به الرسولُ ﷺ معرفةً وعلمًا وإقرارًا ومحبةً ومعرفةً بضدِّه وكراهيته وبُغْضِهِ؛ فهذا إيمانُ خواصِّ الأمة وخاصَّةِ الرسول، وهو إيمانُ الصِّدِّيقِ وحزبِهِ.

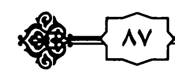
وهو حقيقةٌ مركبةٌ من: معرفة ما جاء به الرسولُ ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نُطقًا، والانقياد له محبَّةً وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان.

وكماله في: الحبِّ في الله، والبُغْضِ في الله، والعطاءِ لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهَهُ ومعبوده.

والطريق إليه: تجريدُ متابعة رسولهِ ظاهرًا وباطنًا، وتغميضُ عين القلبِ عن الالتفات إلىٰ سوىٰ الله ورسوله.

وبالله التوفيق.

من اشتغل بالله عن نفسه كفاهُ الله مؤونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وَكَلهُ الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وَكَلهُ الله إليهم.



فائدة جليلة

ص: ١٥٦

من ترك لله تعالى شيئا يعوضه الله تعالى بالأنس به

إنما يَجِدُ المشقةَ في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تركَها صادقًا مخلصًا من قلبه لله؛ فإنه لا يجد في تركها مشقةً إلّا في أول وهلة، ليُمْتحن أصادقٌ هو في تركها أم كاذبٌ؟ فإن صبرَ على تلك المشقة قليلًا استحالتْ لذَّةً.

قال ابن سيرين: سمعتُ شُريحًا يَحلِفُ بالله ما تركَ عبدٌ لله شيئًا فوجدَ فَقْدَه.

وقولهم: «**من ترك لله شيئًا عوَّضَه الله خيرًا منه**»[1] حقٌّ، والعوضُ أنواعٌ مختلفة، وأجلُّ ما يعوّضُ به: الأنسُ بالله، ومحبته، وطمأنينةُ القلب به، وقوَّتُه، ونشاطُه، وفرحُه، ورضاهُ عن ربِّه تعالىٰ.

* أقربُ الوسائل إلىٰ الله ملازمةُ السُّنَّة والوقوفُ معها في الظاهر والباطن، ودوامُ الافتقار إلىٰ الله، وإرادةُ وجهه وحده بالأقوال والأفعال. وما وصلَ أحدٌ إلىٰ الله إلَّا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحدٌ إلّا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

* الأصولُ التي انبنَىٰ عليها سعادةُ العبد ثلاثةٌ، ولكل واحد منها ضدٌّ؛ فمن فقدَ ذلك الأصلَ حصلَ علىٰ ضدِّه: التوحيدُ وضدُّه الشركُ، والسنة وضدُّها البدعة، والطاعة وضدُّها المعصيةُ. ولهذه الثلاثة ضدٌّ واحدٌ، وهو: خُلوُّ القلب من الرغبة في الله وفيما عنده ومن الرهبة منه وممَّا عنده.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٣). وإسناده صحيح.

قاعدة جليلة

ص: ١٥٧

الله سبحانه يُحب أن تُعرف سبل أعدائه لتجتنب

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥].

والله تعالىٰ قد بيَّن في كتابه سبيلَ المؤمنين مفصلةً وسبيلَ المجرمين مفصلةً، وعاقبة هؤلاء مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفَّق بها هؤلاء والأسباب التي خَذَل بها هؤلاء، وجلَّىٰ سبحانه الأمرين في كتابه وكشَفَهما وأوضحَهما وبينهما غاية البيان، حتىٰ شاهدتْهما البصائرُ كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عَرفوا سبيلَ المؤمنين معرفةً تفصيليةً وسبيلَ المجرمين معرفةً تفصيليةً، فاستبانتْ لهم السبيلانِ كما يستبين للسالك الطريقُ الموصلُ إلىٰ مقصوده والطريقُ الموصلُ إلىٰ الهلكة؛ فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأَدِلَّاءُ الهداةُ.

والناس في هذا الموضع أربعُ فرقٍ:

الأولى: من استبانَ له سبيلُ المؤمنين وسبيلُ المجرمين علىٰ التفصيل علمًا وعملًا، وهؤلاء أعلمُ الخلق.

الفرقةُ الثانيةُ: من عَمِيَتْ عنه السبيلانِ من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أخصُّ ولها أسلَكُ.

الفرقةُ الثالثة: من صَرَفَ عنايتَه إلىٰ معرفة سبيل المؤمنين دون ضدِّها؛ فهو يَعرِف ضدَّها من حيثُ الجملة والمخالفة، وأن كلَّ ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطلٌ، وإن لم يتصوَّرْه علىٰ التفصيل.

الفرقة الرابعة: فرقةٌ عرفتْ سبيلَ الشرِّ والبدع والكفر مفصَّلةً، وسبيلَ المؤمنين مجملةً.

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه يُحِبُّ أن تُعرَفَ سبيلُ أعدائه لتُجتنَب وتُبْغَض كما يُحِبُّ أن تُعرَف سبيلُ أوليائه لتُحَبَّ وتُسلَكَ.

وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله؛ من معرفة عمومِ ربوبيَّته سبحانه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته، وتعلُّقها بمتعلَّقاتها، واقتضائها لآثارها وموجباتها. وذلك من أعظم الدِّلالة علىٰ ربوبيَّتِهِ ومُلكِهِ وإلهيَّتِهِ، وحُبِّهِ وبُغْضِهِ، وثوابِهِ وعقابِهِ.

والله أعلم.



ص: ١٦٢

فصل

عشرة أشياء ضائعةٌ لا يُنتفع بها

عشرةُ أشياء ضائعةٌ لا يُنتفع بها: علمٌ لا يُعمَل به، وعملٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداء، ومالٌ لا يُنْفَقُ منه فلا يَستمتِعُ به جامعُه في الدُّنيا ولا يُقدِّمُه أمامَه إلى الآخرة، وقلبٌ فارغٌ من محبةِ الله والشوق إليه والأنس به، وبدنٌ معطَّل من طاعته وخدمته، ومحبةٌ لا تتقيَّدُ برِضىَ المحبوب وامتثال أوامره، ووقتٌ معطَّل عن استدراك فارطٍ أو اغتنام برٍّ وقُربةٍ، وفكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ، وخدمةُ من لا تُقرِّبُك خدمتُه إلى الله ولا تعودُ عليك بصلاح دُنياك، وخوفُك ورجاؤُك لمن ناصيته بيد الله وهو أسيرٌ في قبضته ولا يَملِك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وأعظمُ هذه الإضاعات إضاعتان هُما أصلُ كلِّ إضاعةٍ: إضاعةُ القلب وإضاعةُ الوقت؛ فإضاعة القلب من إيثار الدُّنيا علىٰ الآخرة، وإضاعةُ الوقت من طول الأمل.

فاجتمع الفسادُ كلُّه في اتباع الهوىٰ وطول الأمل، والصلاحُ كلُّه في اتِّباع الهدىٰ والاستعداد للِّقاء.

والله المستعانُ.

* العجب ممن تَعرِضُ له حاجةٌ، فيَصْرِفُ رغبتَه وهمتَه فيها إلىٰ الله ليقضيها له، ولا يَتصدَّىٰ للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات! ولكن إذا مات القلبُ لم يَشْعُرْ بمعصيته!

فصل

ص: ١٦٣

القضاء نوعان: إما مصائب وإما معايب

لله سبحانه علىٰ عبده أمرٌ أمَرَهُ به وقضاءٌ يقضيه عليه ونعمةٌ يُنْعِمُ بها عليه؛ فلا ينفكُّ من هذه الثلاثة، والقضاءُ نوعان: إمَّا مصائبُ وإما معايبُ، وله عليه عبوديةٌ في هذه المراتب كلِّها.

فأحبُّ الخلق إليه: من عرفَ عبوديتَهُ في هذه المراتب ووفَّاها حقَّها؛ فهذا أقربُ الخلق إليه. وأبعدُهم منه: من جَهِلَ عبوديتَهُ في هذه المراتب فعطَّلها علمًا وعملًا.

فعبوديتُهُ في الأمر: امتثالُه إخلاصًا واقتداءً برسول الله ﷺ.

وفي النهي: اجتنابُهُ خوفًا منه وإجلالًا ومحبَّةً.

وعبوديتُهُ في قضاء المصايب: الصبرُ عليها، ثم الرِّضَىٰ بها وهو أعلىٰ منه، ثم الشكر عليها وهو أعلىٰ من الرِّضىٰ. وهذا إنما يتأتَّىٰ منه إذا تمكن حبُّهُ من قلبه وعلم حُسْنَ اختياره له وبرَّه به ولطفَه به وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة.

وعبوديته في قضاء المعايب: المبادرة إلىٰ التوبة منها والتنصُّل والوقوف في مقام الاعتذار والانكسار، عالمًا بأنه لا يرفعُها عنه إلا هو، ولا يَقِيه شرَّها سواه، وأنها إن استمرَّت أبعدتْه من قربه وطَردتْه من بابه.

وأمَّا عبودية النِّعم فمعرفتها والاعتراف بها أولًا، ثم العياذُ به أن يقع في قلبه نسبتُها وإضافتُها إلىٰ سواه وإن كان سببًا من الأسباب؛ فهو مسبّبه ومقيمه؛ فالنعمة منه وحده بكلِّ وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه ومحبتُه عليها وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبُّد بالنعم أن يَستكثِرَ قليلَها عليه، ويَستقِلَّ كثيرَ شكره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلةٍ منه توسَّل بها إليه، ولا استحقاقٍ منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيدُهُ النعم إلا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبةً للمنعم.

وكلَّما جدَّد له نعمةً أحدثَ لها عبوديةً ومحبةً وخضوعًا وذلًّا، وكلما أحدثَ له قبضًا أحدثَ له رضىً، وكلما أحدثَ ذنبًا أحدثَ له توبةً وانكسارًا واعتذارًا، فهذا هو العبد الكيِّسُ، والعاجزُ بمعزلٍ عن ذلك.

وبالله التوفيقُ.

ص: ١٦٥

فصل

من أسلم أمره لله تعالى وقضائه تولاه الله تعالى

من ترك الاختيارَ والتدبيرَ في رجاء زيادة أو خوف نقصان أو طلب صحةٍ أو فرارٍ من سقم، وعلمَ أنَّ الله علىٰ كل شيء قديرٌ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأنَّ تدبيره لعبده خيرٌ من تدبير العبد لنفسه، فألقىٰ نفسه بين يديه، وسلَّم الأمرَ كلَّه إليه، وانطرحَ بين يديه انطراحَ عبدٍ مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر، له التصرف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرفُ فيه بوجه من الوجوه، فاستراح حينئذٍ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات، وحملَ كَلَّه وحوائجَه ومصالحه من لا يبالي بحملها ولا تُثقِله ولا يَكترِثُ بها، فتولَّاها دونه، وأراه لطفَه وبِرَّهُ ورحمته وإحسانه فيها؛ من غير تعب من العبد ولا نَصَبٍ ولا اهتمام منه؛ لأنَّه قد صرف اهتمامه كله إليه، وجعله وحده همه، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح

دنياه، وفرَّغ قلبه منها؛ فما أطيبَ عيشَه! وما أنعمَ قلبَه وأعظمَ سرورَه وفرحَه!.

وإن أبىٰ إلا تدبيرَه لنفسه، واختيارَه لها، واهتمامَه بحظِّه، دون حقِّ ربه؛ خلَّاه وما اختاره، وولَّاه ما تولىٰ، فحضره الهمُّ والغمُّ والحزن والنكَدُ والخوف والتعب وكسفُ البال وسوءُ الحال؛ فلا قلبَ يصفو، ولا عملَ يزكو، ولا أملَ يحصل، ولا راحةَ يفوزُ بها، ولا لذةَ يتهنَّأُ بها، بل قد حِيْلَ بينه وبين مسرَّته وفرحه وقرَّة عينه؛ فهو يَكدَحُ في الدنيا كَدْحَ الوحشِ، ولا يظفر منها بأمل، ولا يَتزوَّدُ منها لمعادٍ.

والله سبحانه قد أمر العبد بأمر، وضَمِنَ له ضمانًا؛ فإن قام بأمره بالنُّصح والصدق والإخلاص والاجتهاد؛ قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج؛ فإنه سبحانه ضَمِنَ الرزقَ لمن عبده، والنصرَ لمن توكل عليه واستنصر به، والكفايةَ لمن كان هو همَّه ومرادَه، والمغفرةَ لمن استغفرهُ، وقضاءَ الحوائج لمن صدقه في طلبها ووَثِقَ به وقوي رجاؤهُ وطمعُه في فضله وجودِهِ؛ فالفَطِنُ الكيِّسُ إنما يَهتمُّ بأمره وإقامته وتوفيقه لا بضمانه؛ فإنه الوفيُّ الصادقُ، ومن أوفىٰ بعهده من الله؟! فمن علامات السعادة صرفُ اهتمامه إلىٰ أمر الله دون ضمانه، ومن علامات الحرمان فراغُ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه.

والله المستعانُ.

ص: ١٦٨

وقت الإنسان بين وقتين: وقت ماض ووقت مستقبل

نصيحة

هلمَّ إلىٰ الدُّخول علىٰ الله ومجاورته في دار السلام بلا نصبٍ ولا تعبٍ ولا عناءٍ، بل من أقرب الطُّرُقِ وأسهلها!

وذلك أنَّك في وقتٍ بين وقتين، وهو في الحقيقة عمُرُكَ، وهو وقتُك الحاضرُ بين ما مَضَىٰ وما يُستقبَلُ:

فالذي مضىٰ تُصلِحه بالتوبة والنَّدم والاستغفار، وذلك شيءٌ لا تعبَ عليك فيه ولا نصبَ ولا معاناةَ عملٍ شاق، إنما هو عملُ قلبٍ.

وتمتنع فيما يُستَقبل من الذُّنوب، وامتناعُك تركٌ وراحةٌ، ليس هو عملًا بالجوارح يَشُقُّ عليك معاناتُه، وإنما هو عزمٌ ونيَّةٌ جازمةٌ تُريحُ بدنَك وقلبَك وسرَّك.

فما مضىٰ تُصلِحُهُ بالتوبة، وما يُستقبل تُصلِحُه بالامتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصبٌ ولا تعبٌ، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين؛ فإن أضعتَه أضعتَ سعادتَك ونجاتك، وإن حفظتَه مع إصلاح الوقتين اللَّذين قبله وبعده بما ذُكِرَ نجوتَ وفُزتَ بالراحة واللَّذَّةِ والنعيم، وحفظُهُ أشقُّ من إصلاح ما قبله وما بعده؛ فإن حفظه أن تُلزِمَ نفسَك بما هو أولىٰ بها وأنفعُ لها وأعظمُ تحصيلًا لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوتٍ.

ص: ١٧٠

فصل

علامة صحة الإرادة

علامة صحة الإرادة: أن يكون همُّ المريد رِضَىٰ ربه، واستعداده للقائه، وحزنه علىٰ وقت مرَّ في غير مرضاته، وأسفه علىٰ قربه والأنس به. وجماعُ ذلك أن يُصبح ويُمسي وليس له همٌّ غيره.

فصل

الاستغناء بالله تعالى والفرح به

* إذا استغنىٰ الناسُ بالدُّنيا فاستغنِ أنت بالله، وإذا فرحوا بالدُّنيا فافرح أنت بالله، وإذا أَنِسُوا بأحبابهم فاجعلْ أنسَك بالله، وإذا تعرَّفوا إلىٰ ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزَّ والرفعة؛ فتعرَّفْ أنت إلىٰ الله وتودَّدْ إليه؛ تنالُ بذلك غاية العز والرفعة.

فصل

أقسام الزهد

الزهد أقسامٌ: زهدٌ في الحرام، وهو فرضُ عين. وزهدٌ في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة: فإن قويتْ التحقتْ بالواجب، وإن ضعُفتْ كان مستحبًا. وزهدٌ في الفضول. وزهدٌ فيما لا يَعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره. وزهدٌ في الناس. وزهدٌ في النفس بحيث تَهُون عليه نفسُه في الله. وزهدٌ جامعٌ لذلك كله، وهو الزهدُ فيما سوى الله وفي كل ما شَغَلك عنه.

وأفضل الزهد إخفاء الزهد.

وأصعبه الزهدُ في الحظوظ.

والفرق بينه وبين الورع: أن الزهد تركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشىٰ ضرره في الآخرة.

ص: ١٧١

ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي

فائدة جليلة

قال سهل بن عبد الله: ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأنَّ آدم نُهي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يُتَب عليه.

قلت: هذه مسألة عظيمةٌ لها شأنٌ، وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، وذلك من وجوه عديدة:

أحدُها: ما ذكره سهلٌ من شأن آدم وعدوِّ الله إبليس.

الثاني: أن ذنب ارتكاب النهي مصدره في الغالب الشهوة والحاجة، وذنبُ ترك الأمر مصدره في الغالب الكِبْرُ والعزَّةُ، و«**لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرٍ**»[١]، ويدخلها من مات علىٰ التوحيد وإن زنىٰ وسرق[٢].

الثالث: أن فعل المأمور أحبُّ إلىٰ الله من ترك المنهي؛ كما دلَّ علىٰ ذلك النصوصُ:

كقوله ﷺ: «**أحبُّ الأعمال إلىٰ الله الصلاة علىٰ وقتها**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

الوجه الرابع: أن فعل المأمور مقصود لذاته، وترك المنهيِّ مقصودٌ لتكميل فعل المأمور؛ فهو منهيٌّ عنه لأجل كونه يُخِلُّ بفعل المأمور أو يُضعِفه وينقصه؛ كما نبَّه سبحانهُ علىٰ ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يَصُدَّانِ عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فالمنهياتُ قواطعُ وموانعُ صادَّةٌ عن فعل المأمورات أو عن كمالها؛ فالنهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه.

ويوضحه **الوجه الخامس**: أن فعل المأمورات من باب حفظ قوة الإيمان وبقائها، وترك المنهيات من باب الحِمْية عما يُشوِّش قوةَ الإيمان ويُخرِجها عن الاعتدال، وحفظ القوة مقدَّمٌ علىٰ الحمية؛ فتأمل هذا الوجه.

الوجه السادس: أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤهُ وزينته وسروره وقُرَّةُ عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيَّات بدون ذلك لا يُحصِّلُ له شيئًا من ذلك؛ فإنه لو ترك جميع المنهيَّات، ولم يَأتِ بالإيمان والأعمال المأمورِ بها لم ينفعه ذلك الترك شيئًا، وكان خالدًا مخلَّدًا في النار.

وهذا يتبينُ **بالوجه السابع**: أن مَن فعلَ المأموراتِ والمنهيَّاتِ؛ فهو: إما ناجٍ إن غلبتْ حسناتُه سيئاتِه، وإما ناجٍ بعد أن يُؤخذَ منه الحقُّ ويُعاقَب علىٰ سيئاته؛ فمآلُهُ إلىٰ النجاة، وذلك بفعل المأمور. ومن ترك المأمورات والمنهيَّات فهو هالكٌ غير ناجٍ. ولا ينجو إلا بفعل المأمور، وهو التوحيد.

فإن قيل: فهو إنَّما هلك بارتكاب المحظور، وهو الشركُ.

قيل: يكفي في الهلاك تركُ نفسِ التوحيد المأمور به وإن لم يأتِ بضدٍّ وجوديٍّ من الشرك، بل متىٰ خلا قلبُهُ من التوحيد رأسًا؛ فلم يُوحِّد اللهَ فهو هالكٌ، وإن لم

يَعبُد معه غيرَه، فإذا انضاف إليه عبادةُ غيره؛ عُذِّبَ علىٰ تركِ التوحيد المأمور به وفعلِ الشرك المنهيِّ عنه.

الوجه الثامن: أنَّ المنهيَّ عنه المقصودُ إعدامُه وأن لا يدخل في الوجود، سواءٌ نوىٰ ذلك أو لم يَنْوه، وسواءٌ خطر بباله أو لم يخطر؛ فالمقصود أن لا يكون، وأما المأمورُ به فالمقصودُ كونه وإيجادُه والتقرُّبُ به نيةً وفعلًا.

وسرُّ المسألة: أنَّ وجود ما طلب إيجادَهُ أحبُّ إليه من عدم ما طلب إعدامهُ، وعدم ما أحبَّه أكره إليه من وجود ما يُبْغِضُهُ؛ فمحبتُه لفعل ما أمر به أعظمُ من كراهته لفعل ما نهىٰ عنه.

وليس المرادُ بذلك أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد ما يحبُّ أحبُّ إليه من فوات كل فردٍ مما يكرهُ، حتىٰ تكون ركعتا الضُّحىٰ أحبَّ إليه من فوات قتل المسلم، وإنما المراد أن جنس فعل المأمورات أفضلُ من جنس ترك المحظورات؛ كما إذا فُضِّلَ الذكَرُ علىٰ الأنثىٰ والإنسيُّ علىٰ الملك؛ فالمرادُ الجنسُ لا عمومُ الأعيانِ.

وسرُّ هذه الوجوه: أنَّ المأمور به محبوبُهُ والمنهيَّ مكروهُهُ، ووقوعُ محبوبه أحبَّ إليه من فوات مكروهه، وفواتُ محبوبه أكرهُ إليه من وقوع مكروهه.

والله أعلم.

ص: ١٨٥

مبنى الدين على الذكر والشكر

فصل

مبنىٰ الدين علىٰ قاعدتين: الذكر والشكر:

قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال النبيُّ ﷺ لمعاذٍ: «**والله إنِّي لأحبُّك؛ فلا تنسَ أن تقول دُبُر كُلِّ صلاةٍ: اللهمَّ! أعِنّي علىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادَتِكَ**»[1].

وليس المرادُ بالذِّكْرِ مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكرَ أسمائِهِ وصفاته، وذكرَ أمرِهِ ونهيِهِ وذِكْرَهُ بكلامه، وذلك يستلزمُ معرفتَهُ والإيمان به وبصفات كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتمُّ إلا بتوحيده.

فذكره الحقيقيُّ يستلزمُ ذلك كلَّه ويستلزم ذكر نعمِهِ وآلائِهِ وإحسانِهِ إلىٰ خلقه.

وأما الشكرُ فهو القيامُ له بطاعته والتقرُّبُ إليه بأنواع محابِّه ظاهرًا وباطنًا.

وهذان الأمران هما جِمَاعُ الدِّين؛ فذكره مستلزمٌ لمعرفته، وشكره متضمنٌ لطاعته.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣). وإسناده صحيح.

فصل

ص: ١٨٨

أعمال القلب والجوارح هي سبب الهداية والإضلال

تكرَّر في القرآن جعْلُ الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سببَ الهداية والإضلال، فيقومُ بالقلب والجوارح أعمالٌ تقتضي الهُدىٰ اقتضاء السببِ لمسبَّبه والمؤثِّر لأثره، وكذلك الضلالُ؛ فأعمالُ البر تُثْمِرُ الهدىٰ، وكلَّما ازداد منها ازداد هدًىٰ، وأعمالُ الفجور بالضدِّ.

وذلك أنَّ الله سبحانه يُحِبُّ أعمال البرِّ فيجازي عليها بالهُدىٰ والفلاح، ويُبْغِضُ أعمال الفجور ويُجازي عليها بالضَّلال والشَّقاءِ.

وأيضًا فإنه البرُّ، ويحبُّ أهل البِرِّ، فيُقرِّبُ قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويُبْغِضُ الفجور وأهله؛ فيبعدُ قلوبهم منه بحسب ما اتَّصفوا به من الفجور.

فمن **الأصل الأول**: قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٠].

وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]؛ فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهُم بالإيمان هدايةً بعد هدايةٍ.

ونظيرُ هذا قولُه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

ص: ١٩١

فصل

اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال

وأمَّا **الأصل الثاني** -وهو اقتضاءُ الفجور والكبر والكذب للضَّلال- فكثيرٌ أيضًا في القرآن:

كقوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فأخبر أنه عاقبهم علىٰ تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه، بأن قلَّب أفئدتَهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الإيمان؛ وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ فأخبر سبحانه أن كسبهم غطَّىٰ علىٰ قلوبهم وحال بينها وبين الإيمان بآياته.

ص: ١٩٣

الإقران بين الهدي والتقى والضلال والغي

فصل

وكما يَقرِن سبحانه بين الهُدىٰ والتُّقىٰ، والضلال والغيِّ؛ فكذلك يقرن بين: الهُدىٰ والرحمة، والضلال والشَّقاء:

فمن الأول:

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وقال عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال أهل الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم أعاد سبحانه ذكرهما فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]، وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]؛ والهدىٰ منعَه من الضلال، والرحمة منعتْه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة في قوله: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢]، فجمع له بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه؛ كما قال في آخرها في حقِّ أتباعه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فالهدىٰ والفضل والنعمة والرحمة متلازماتٌ لا يَنفكُّ بعضُها عن بعض؛ كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، والسُّعر: جمع سعيرٍ، وهو العذابُ الذي هو غايةُ الشقاء.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالىٰ عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدىٰ وانشراح الصدر والحياة الطيبة وبين الضلال وضِيق الصدر والمعيشة الضَّنْك:

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وكذلك يجمع بين الهدىٰ والإنابة وبين الضلال وقسوة القلب:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ص: ١٩٦
حكمة الله تعالى في العطاء والمنع

فصل

والهدىٰ والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع، وهو سبحانه يُصرِّف خلقَه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادرٌ عن حكمةٍ بالغةٍ ومُلكٍ تامٍّ وحمدٍ تامٍّ؛ فلا إله إلا الله.

ص: ١٩٦
ترك العاقل الحرص على الدنيا

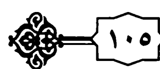
فصل

إذا رأيتَ النفوس المُبطِلة الفارغة من الإرادة والطلب لهذا الشأن قد تشبَّث بها هذا العالمِ السُّفْليُّ وقد تشبَّثَتْ به؛ فكِلْها إليه؛ فإنه اللائقُ بها لفساد تركيبها، ولا تَنقُشْ عليها ذلك؛ فإنه سريع الانحلال عنها، ويبقىٰ تشبُّثُها به مع انقطاعه عنها عذابًا عليها بحسب ذلك التعلُّق، فتبقىٰ شهوتُها وإرادتُها فيها؛ وقد حِيْلَ بينها وبين ما تشتهي علىٰ وجهٍ يئستْ معه من حصول شهوتها ولذَّتها.

فلو تصور العاقلُ ما في ذلك من الألم والحسرة لبادرَ إلىٰ قطع هذا التعلُّق كما يُبادِرُ إلىٰ حَسْم موادِّ الفساد، ومع هذا فإنه ينالُ نصيبَه من ذلك؛ وقلبُه وهمُّه متعلقٌ بالمطلب الأعلىٰ.

والله المستعانُ.





ص: ١٩٧

الحذر من الكذب في العلم

فصل

إياك والكذبَ؛ فإنَّه يُفْسِدُ عليك تصوُّرَ المعلومات علىٰ ما هي عليه، ويُفسِد عليك تصويرَها وتعليمَها للناس!

ولهذا كان الكذبُ أساسَ الفجور؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ الكذب يهدي إلىٰ الفُجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النَّار**»(١).

وأولُ ما يَسرِي الكذبُ من النفس إلىٰ اللسان فيُفسِدُه، ثم يسري إلىٰ الجوارح فيُفسدُ عليها أعمالها كما أفسد علىٰ اللسان أقواله، فيَعُمُّ الكذبُ أقواله وأعمالَه وأحوالَه، فيَستحكِمُ عليه الفسادُ ويَترامَىٰ داؤه إلىٰ الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدقِ يَقلَعُ تلك المادَّة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلِّها الصدق، وأضدادُها من الرِّياء والعُجْب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجُبن والمهانة وغيرها أصلها الكذبُ؛ فكلُّ عمل صالح ظاهرٍ أو باطنٍ فمنشؤهُ الصدق، وكل عمل فاسدٍ ظاهرٍ أو باطنٍ فمنشؤهُ الكذبُ.

والله تعالىٰ يعاقب الكذابَ بأن يُقعِده ويُثبِّطه عن مصالحه ومنافعه، ويُثيب الصادقَ بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته؛ فما استُجلِبَتْ مصَالحُ الدُّنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدُهما ومضارُّهما بمثل الكذب.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

فصل

ص: ١٩٨

لا أنفع للعبد من امتثال الأمر ولو كرهه

في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

في هذه الآية عدةُ حِكَم وأسرار ومصالح للعبد:

فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ أوجب له ذلك أمورًا:

منها: أنَّه لا أنفعَ له من امتثال الأمر، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأنَّ عواقبه كلها خيراتٌ ومسراتٌ ولذاتٌ وأفراح، وإن كرهته نفسه؛ فهو خيرٌ لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضرٌ عليه من ارتكاب النهي، وإن هَوِيتْه نفسه ومالت إليه؛ فإن عواقبه كلها آلامٌ وأحزانٌ وشرورٌ ومصائبُ.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويضَ إلىٰ من يعلم عواقبَ الأمور، والرِّضىٰ بما يختارُهُ له ويقضيه له؛ لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه إذا فَوَّضَ إلىٰ ربه ورضي بما يختاره له؛ أمدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصَرَفَ عنه الآفاتِ التي هي عُرضة اختيارِ العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلىٰ بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يُرِيحه من الأفكار المُتعِبة في أنواع الاختيارات، ويُفرِّغ قلبَه من التقديرات والتدبيرات التي يَصعد منها في عقبةٍ وينزلُ في أخرىٰ، ومع هذا فلا خروجَ له عما قُدِّر عليه؛ فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمودٌ مشكورٌ ملطوفٌ به فيه، وإلَّا جري عليه القدرُ وهو مذمومٌ غيرُ ملطوفٍ به فيه؛ لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتىٰ صحَّ تفويضُهُ ورضاه اكتنفَه في المقدور العطفُ عليه واللطفُ به، فيصير بين عطفه ولطفه؛ فعطفهُ يَقِيه ما يحذره، ولطفهُ يُهوِّنُ عليه ما قدَّرَهُ.

فصل

ص: ٢٠١

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه

لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرفَ نفسه، ووقف بها عند قدرها، ولم يَتجاوزهُ إلىٰ ما ليس له، ولم يَتَعدَّ طورَه، ولم يقل: هذا لي، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاقٍ منه، **فتُذِلُّه نعمُ الله عليه، وتَكْسره كسرةَ من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتُحدثُ له النعمُ ذُلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعبَّرُ عنه؛ فكلما جدَّد لهُ نعمةً ازداد له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبّةً وخوفًا ورجاءً.**

وهذا نتيجةُ علمين شريفين:

علمه بربه وكماله وبِرِّه وغناه وجُودِه وإحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه، وهو ملكه؛ يُؤتي منه من يشاءُ ويمنع منه من يشاءُ، وله الحمدُ علىٰ هذا. وهذا أكملُ حمدٍ وأتمُّهُ.

وعلمُه بنفسه، ووقوفه علىٰ حدِّها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها، وأنها لا خير فيها البتة، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلّا العدم؛ فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلَّا العدم الذي لا شيء أحقرُ منه ولا أنقص؛ فما فيها من الخير تابعٌ لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

وهذا معنىٰ قولهم: من عرفَ نفسه عَرفَ ربه[1].

---

(١) يُحكىٰ عن يحيىٰ بن معاذ الرازي من قوله. انظر: «المقاصد الحسنة» (ص ١٩٨).

ص: ٢٠٢

فصل

الصبر على الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة

الصبرُ على الشهوة أسهلُ من الصبر على ما تُوجِبُهُ الشهوةُ؛ فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبةً، وإمّا أن تقطع لذَّةً أكملَ منها، وإما أن تُضيِّع وقتًا إضاعتُهُ حسرةٌ وندامةٌ، وإما أن تَثْلم عِرضًا توفيرُهُ أنفعُ للعبد من ثَلمِه، وإما أن تُذهِبَ مالًا بقاؤُهُ خيرٌ له من ذهابه، وإما أن تَجلِب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقاربُ لذَّةَ الشهوة.

ص: ٢٠٣

فصل

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانا

للأخلاق حدٌّ متى جاوزتْه صارت عُدوانًا، ومتى قصَّرتْ عنه كان نقصًا ومهانة.

فللغضب حدٌّ، وهو الشجاعةُ المحمودةُ والأَنفةُ من الرذائل والنقائص، وهذا كماله. فإذا جاوز حدَّه تعدَّىٰ صاحبُه وجار، وإن نقصَ عنه جبُن ولم يأْنفْ من الرذائل.

والجود له حدٌّ بين طرفين؛ فمتىٰ جاوز حدَّه صار إسرافًا وتبذيرًا، ومتىٰ نقصَ عنه كان بُخلًا وتقتيرًا.

وللشجاعة حدٌّ؛ متىٰ جاوزته صارت تهوُّرًا، ومتىٰ نقصتْ عنه صارتْ جُبنًا وخَوَرًا. وحدُّها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجامُ في مواضع الإحجام؛ كما قال معاويةُ لعمرو بن العاص[1]: أعياني أن أعرفَ شُجاعًا أنت أم جبانًا تُقدِمُ حتىٰ أقول: من أشجع الناس، وتَجبُن حتىٰ أقول: من أجبن الناس؟! فقال:

(١) انظر: «عيون الأخبار» (١/ ١٦٣).

شُـجاعٌ إذا مـا أمْكنتْنـيَ فُرْصـةٌ فـإن لـم تكن لي فُـرْصـةٌ فجَبانُ

والغيرةُ لها حدٌّ؛ إذا جاوزته صارتْ تهمةً وظنًّا سيئًا بالبريء، وإن قصَّرتْ عنه كانت تغافلًا ومبادئ دياثةٍ.

وللتواضع حدٌّ؛ إذا جاوزه كان ذُلًّا ومهانةً، ومن قصَّر عنه انحرف إلىٰ الكبر والفخر.

وللعزِّ حدٌّ؛ إذا جاوزهُ كان كبرًا وخُلُقًا مذمومًا، وإن قصَّرَ عنه انحرف إلىٰ الذُّلِّ والمهانة.

وضابط هذا كُلِّه العدلُ، وهو الأخذُ بالوسطِ الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناءُ مصالح الدُّنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلَّا به.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي؛ فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتىٰ لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخلٌ فيها.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

فأعدلُ الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفةً وفعلًا.

وبالله التوفيقُ.

فصل

ص: ٢٠٦

التقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: يا حبَّذا نومُ الأكياس وفطْرُهم؛ كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم؛ والذرةُ من صاحب تقوى أفضلُ من أمثال الجبال عبادةً من المُغترِّين؟![1]

وهذا من جواهر الكلام وأدلِّه علىٰ كمال فقه الصحابة وتقدمهم علىٰ من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم.

فاعلمْ أن العبد إنما يَقطع منازلَ السير إلىٰ الله بقلبه وهمته لا ببدنِه، والتقوىٰ في الحقيقة تقوىٰ القلوب لا تقوىٰ الجوارح.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال النبي ﷺ: «**التقوىٰ ها هنا**»[2]، وأشار إلىٰ صدره.

فالكيِّسُ يَقطعُ من المسافة بصحة العزيمة وعلوِّ الهمَّةِ وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعافَ أضعافِ ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر المُشِقّ.

وإذا عُرف هذا فالصادقون السائرون إلىٰ الله والدار الآخرة قسمان:

قسمٌ صَرَفوا ما فضلَ من أوقاتهم بعد الفرائض إلىٰ النوافل البدنيَّة وجعلوها دأبهم؛ من غير حرص منهم علىٰ تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٣٧). (٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

يكونوا خالين من أصلها، لكن هِمَمَهم مصروفةٌ إلىٰ الاستكثار من الأعمال.

وقسمٌ صرفوا ما فضَلَ عن الفرائض والسنن إلىٰ الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها علىٰ الله وحده والجمعية عليه وحفظ الخواطر والإرادات معه، وجعلوا قوة تعبُّدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكُّل والإنابة، ورأوا أن أيسر نصيبٍ من الواردات التي تَرِدُ علىٰ قلوبهم من الله أحبُّ إليهم من كثير من التطوعات البدنيَّة؛ فإذا حصل لأحدهم جمعيةٌ ووارِدُ أُنسٍ أو حبٍّ أو اشتياقٍ أو انكسارٍ وذُلٍّ؛ لم يَستبدلْ به شيئًا سواه البتة؛ إلَّا أنْ يجيء الأمرُ، فيُبادر إليه بذلك الوارد إن أمكنه، وإلَّا بادرَ إلىٰ الأمر ولو ذهب الوارد؛ فإذا جاءت النوافل فها هنا معتركُ التردُّد؛ فإن أمكن القيام إليها به فذاك، وإلَّا نظرَ في الأرجح والأحبِّ إلىٰ الله؛ هل هو القيامُ إلىٰ تلك النافلة ولو ذهب واردُهُ؛ كإغاثة الملهوف وإرشاد ضالٍّ وجَبْر مكسورٍ واستفادة إيمانٍ ونحو ذلك؛ فها هنا ينبغي تقديم النافلة الراجحة، ومتىٰ قدَّمها لله رغبةً فيه وتقرُّبًا إليه فإنَّه يَرِدُ عليه ما فات من واردِهِ أقوىٰ مما كان في وقتٍ آخر، وإن كان الواردُ أرجحَ من النافلة فالحزمُ له الاستمرارُ في واردِهِ حتَّىٰ يتوارىٰ عنه؛ فإنه يفوتُ والنافلةُ لا تفوت. وهذا موضعٌ يحتاجُ إلىٰ فضل فقهٍ في الطريق ومراتب الأعمال وتقديم الأهمِّ منها فالأهمِّ. والله الموفقُ لذلك، لا إله غيره ولا ربَّ سواهُ.

فصل

ص: ٢٠٩

أصل الأخلاق المذمومة والمحمودة

أصلُ الأخلاق المذمومة كلِّها الكِبرُ والمهانة والدَّناءةُ.

وأصلُ الأخلاق المحمودة كلِّها الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة.

فصل

ص: ٢١٠

المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية

المطلبُ الأعلىٰ موقوفٌ حصولُه علىٰ همةٍ عاليةٍ ونيةٍ صحيحةٍ؛ فمن فقدهما تعذَّر عليه الوصولُ إليه.

فإن الهمَّة إذا كانت عاليةً تعلَّقتْ به وحده دون غيره، وإذا كانت النيةُ صحيحةً سلك العبدُ الطريقَ الموصلة إليه؛ فالنية تُفرد له الطريقَ، والهمةُ تُفرد له المطلوبَ؛ فإذا توحَّدَ مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصولُ غايتَه.

والله المستعانُ.

فصل

من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

ص: ٢١١

* قال رجلٌ عنده: ما أُحِبُّ أن أكون من أصحاب اليمين، أُحِبُّ أن أكون من المقرَّبين! فقال عبد الله: لكن ها هنا رجلٌ ودَّ أنه إذا مات لم يُبْعَثْ. يعني نفسَه(١).

* وخرج ذات يوم، فاتَّبَعهُ ناسٌ، فقال لهم: ألكُم حاجةٌ؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: ارجِعوا فإنه ذِلَّةٌ للتابع وفتنةٌ للمتبوع(٢).

* وقال: لو تعلمون مني ما أعلمُ من نفسي لحَثَوتُم علىٰ رأسي التراب(٣).

*** ينبغي لحامل القرآن أن يُعَرفَ بليله إذا الناسُ نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصَمْته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.** وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا سخَّابًا ولا صَيَّاحًا ولا حديدًا(٤).

* من تطاول تعظُّمًا حَطَّهُ الله، ومن تواضع تخشُّعًا رفعه الله(٥).

*** وإنَّ للملَك لَمّةً وللشيطان لَمّةً: فلَمَّةُ الملك إيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقِّ؛ فإذا**

---

(١) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٦).

(٢) انظر: «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا (ص ٥٢).

(٣) انظر: «المستدرك» للحاكم (٣/ ٣١٥).   (٤) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٦٢).

(٥) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٦).

رأيتم ذلك فاحمدوا الله. ولَمَّةُ الشيطان إيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ؛ فإذا رأيتُم ذلك فتعوَّذوا بالله[١].

* إني لأُبغِضُ الرجلَ أن أراهُ فارغًا ليس في شيءٍ من عمل الدُّنيا ولا عمل الآخرة[٢].

* ومن لم تأمره الصلاةُ بالمعروف وتَنْهَه عن المنكر لم يزددْ بها من الله إلا بعدًا[٣].

* ما دُمتَ في صلاة فأنت تَقْرَعُ بابَ الملك، ومن يَقْرَعْ بابَ الملك يُفتَحْ له[٤].

* إني لأحسبُ الرجل ينسىٰ العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها[٥].

* إنَّ للقلوب شهوةً وإدبارًا؛ فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودَعُوها عند فترتها وإدبارها[٦].

* ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية[٧].

* ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعًا[٨].

* إذا أحب الرجل أن يُنصِف من نفسه فليأتِ إلى الناس الذي يُحب أن يؤتى إليه[٩].

---

(١) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٧).
(٢) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٩).
(٣) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٩).
(٤) انظر: «مصنف عبد الرزاق» (٣/ ٤٧).
(٥) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٦).
(٦) انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١١/ ١٥٩).
(٧) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٥٨).
(٨) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٩/ ١٥٠).
(٩) انظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٨/ ١٦٤).

• الحقُّ ثقيل مريءٌ، والباطلُ خفيفٌ وبيءٌ، رُبَّ شهوةٍ تُورِثُ حزنًا طويلًا[١].

• ما علىٰ وجه الأرض شيءٌ أحوجُ إلىٰ طول سَجْنٍ من لسان[٢].

• إذا ظهر الزِّنىٰ والرِّبا في قريةٍ أُذِنَ بهلاكها[٣].

• من استطاعَ منكم أن يجعل كنزَه في السماء حيثُ لا يأكله السوسُ ولا تناله السرَّاقُ فليفعل؛ فإن قلب الرجل مع كنزه[٤].

* لا يكن أحدكم إمَّعةً! قالوا: وما الإمعةُ؟ قال: يقولُ: أنا مع الناس؛ إن اهتَدوا اهتديتُ، وإن ضلُّوا ضللتُ، ألا لِيوطِّنْ أحدُكم نفسَه علىٰ أنه إن كفَر الناسُ لا يكفر[٥].

*** اطلبْ قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذِّكر، وفي أوقات الخلوة؛ فإن لم تجدهُ في هذه المواطن فسَلِ الله أن يَمُنَّ عليك بقلب؛ فإنه لا قلبَ لك.**

---

(١) انظر: «الزهد» لابن المبارك (ص ٩٨). (٢) انظر: «الزهد» لأحمد (ص ١٦٢).

(٣) انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ١٦٣). (٤) انظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٨/ ١٥٩).

(٥) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٢).

ص: ٢١٩

فصل

لا يجتمع الإخلاص ومحبة المدح

لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبةُ المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلَّا كما يجتمع الماءُ والنار والضبُّ والحوتُ.

فإذا حدَّثتْك نفسُك بطلب الإخلاص فأقبِلْ علىٰ الطمع أولًا فاذبحْه بسكين اليأس، وأقبِلْ علىٰ المدح والثناء فازهد فيهما زهدَ عُشاق الدُّنيا في الآخرة؛ فإذا استقام لك ذبحُ الطمع والزُّهدُ في الثناء والمدح؛ سَهُلَ عليك الإخلاص.

ص: ٢٢٠

فصل

لذة كل أحد على حسب قدره وهمته

لذَّةُ كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه:

فأشرفُ النَّاس نفسًا وأعلاهم همةً وأرفعهم قدرًا من لذَّتُهُ في معرفة الله ومحبَّته والشوق إلى لقائه والتودُّد إليه بما يحبُّه ويرضاه؛ فلذَّتُه في إقباله عليه وعكوف همَّته عليه. ودون ذلك مراتبُ لا يحُصيها إلَّا الله، حتىٰ تنتهي إلىٰ من لذَّتُهُ في أخسِّ الأشياء من القاذورات والفواحش في كلِّ شيءٍ من الكلام والفعال والأشغال؛ فلو عُرِض عليه ما يلتذُّ به الأولُ لم تَسمَح نفسُه بقبوله ولا الالتفات إليه وربما تألَّمتْ من ذلك؛ كما أن الأول إذا عُرِض عليه ما يلتذُّ به هذا لم تسمَحْ نفسه به ولم تلتفتْ إليه ونفرتْ نفسه منه.

وأكمل الناس لذةً من جُمِع له بين لذَّة القلب والروح ولذة البدن؛ فهو يتناول لذَّاته المباحة علىٰ وجهٍ لا ينقُصُ حظّه من الدار الآخرة ولا يقطع عليه لذَّةَ المعرفة والمحبة والأنس بربِّه؛ فهذا ممن قال تعالىٰ فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ

لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وأبخسُهم حظًّا من اللذة من تناولها علىٰ وجهٍ يحولُ بينه وبين لذَّات الآخرة، فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللَّذَّاتِ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

سبحان الله رب العالمين!

لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلَّا راحةُ البدن، وقوةُ القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفُسَّاق والفُجَّار، وقلةُ الهمّ والغمّ والحزن، وعزُّ النفس عن احتمال الذُّلِّ، وصونُ نور القلب أن تُطفئهُ ظلمةُ المعصية، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدُّعاء له، والحلاوةُ التي يكتسبها وجهه، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُربُ الملائكة منه، وبعدُ شياطين الإنس والجنِّ منه، وعدم خوفه من الموت بل يفرح به لقدومه علىٰ ربِّه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَرُ الدُّنيا في قلبه، وكِبَرُ الآخرة عنده، وحرصُهُ علىٰ الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوقُ حلاوة الطاعة، ووجدُ حلاوة الإيمان، ودعاءُ حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرحُ الكاتبين به ودعاؤُهم له كلَّ وقتٍ، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرورٍ لا نسبةَ له إلىٰ فرحِه وسروره بالمعصية بوجهٍ من الوجوه. فهذه بعضُ آثار ترك المعاصي في الدُّنيا.

فإذا مات تلقَّتْهُ الملائكةُ بالبُشرىٰ من ربِّه بالجنة، وبأنَّه لا خوف عليه ولا حُزْن، وينتقلُ من سجن الدُّنيا وضيقها إلىٰ روضةٍ من رياض الجنة ينعم فيها إلىٰ يوم القيامة.

فإذا كان يومُ القيامة كان الناسُ في الحرِّ والعرَقِ، وهو في ظلِّ العرش. فإذا انصرفوا من بين يدي الله أخذَ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين. و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فصل

ص: ٢٢٣

إذا أراد الله بعبده خيرا أشهده منته وتوفيقه

ذكر ابنُ سعد في «الطبقات»[1] عن عمر بن عبد العزيز: أنه كان إذا خطب على المنبر، فخاف على نفسه العُجْبَ قطعهُ. وإذا كتب كتابًا، فخاف فيه العُجْبَ مزَّقه. ويقولُ: اللهمَّ! إنِّي أعوذُ بك من شرِّ نفسي.

إذا أراد الله بعبده خيرًا أشهده منتَه وتوفيقه وإعانتَه له في كل ما يقوله ويفعله، فلا يُعجَب به، ثم أشهده تقصيره فيه، وأنه لا يرضىٰ لربه به، فيتوب إليه منه ويستغفره ويستحيي أن يطلب عليه أجرًا. وإذا لم يُشهِده ذلك، وغيَّبهُ عنه، فرأىٰ نفسه في العمل، ورآه بعين الكمال والرضىٰ، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرِّضىٰ والمحبة.

فالعارفُ يعمل العمل لوجهه، مشاهدًا فيه منته وفضلهُ وتوفيقه، معتذرًا منه إليه، مستحييًا منه إذ لم يُوفِّه حقَّهُ. والجاهل يعمل العمل لحظِّه وهواهُ، ناظرًا فيه إلىٰ نفسه، يمُنُّ به علىٰ ربِّه، راضيًا بعمله. فهذا لونٌ وذاك لونٌ آخرُ.

(١) (٥/ ٣٣٢) بمعناه.

ص: ٢٢٥

فصل

الوصول إلى المطلوب موقوف على هَجْر العوائد وقطع العوائق والعلائق

فالعوائدُ: السكونُ إلىٰ الدَّعَةِ والراحة وما أَلِفهُ الناس واعتادوهُ من الرسوم والأوضاع، التي جعلوها بمنزلة الشرع المتَّبع، وأماتوا لها السُّنن، ونصبوها أندادًا للرسول يُوالون عليها ويُعادون؛ فالمعروفُ عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

ص: ٢٢٦

فصل

العوائق هي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها

وأما العوائقُ فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها؛ فإنها تَعُوق القلبَ عن سيرِه إلىٰ الله وتقطع عليه طريقَه.

وهي ثلاثة أمورٍ: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ؛ فيزولُ عائقُ الشرك بتجريد التوحيد، وعائقُ البدعة بتحقيق السنة، وعائقُ المعصية بتصحيح التوبة.

ص: ٢٢٦

فصل

العلائق فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله

وأما العلائقُ فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذِّ الدنيا وشهواتها ورئاساتها وصحبة الناس والتعلق بهم.

ولا سبيل له إلىٰ قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوَّة التعلق بالمطلب الأعلىٰ، وإلَّا فقطعُها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنعٌ؛ فإن النفس لا تترك مألوفها

ومحبوبها إلَّا لمحبوب هو أحبُّ إليها منه وآثرُ عندها منه، وكلما قوي تعلقُه بمطلوبه ضعُفَ تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلقُ بالمطلوب هو شدَّةُ الرغبة فيه، وذلك علىٰ قدر معرفته به وشرفه وفضله علىٰ ما سواه.

فصل

حاجة الخلائق كلهم إلى الرسول في الدُّنيا والآخرة

لما كمَّل الرسولُ ﷺ مقامَ الافتقار إلىٰ الله سبحانه أحوجَ الخلائقَ كلهم إليه في الدُّنيا والآخرة:

أمَّا حاجتهم إليه في الدُّنيا فأشدُّ من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب والنفَس الذي به حياةُ أبدانهم.

وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرُّسل إلىٰ الله حتَّىٰ يُرِيْحَهم من ضيق مقامهم؛ فكلهم يتأخر عن الشفاعة، فيشفع لهم، وهو الذي يَستفتحُ لهم باب الجنة.

فصل

ص: ٢٢٧

من علامات السعادة: التواضع

من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زِيدَ في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقصَ من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قُربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وهذه الأمورُ ابتلاءٌ من الله وامتحانٌ يَبْتَلي بها عبادَه فيَسعَدُ بها أقوامٌ ويَشقىٰ بها أقوامٌ.

وكذلك الكراماتُ امتحانٌ وابتلاءٌ كالملك والسلطان والمال؛ قال تعالىٰ عن نبيه سليمان لما رأىٰ عرش بلقيس عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فصل

ص: ٢٢٨

الأعمال والدرجات بنيان والإيمان أساسها

من أراد علوَّ بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به؛ فإن علو البنيان علىٰ قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيانٌ، وأساسها الإيمان، ومتىٰ كان الأساس وثيقًا حملَ البنيانَ واعتلىٰ عليه، وإذا تهدَّم شيءٌ من البنيان سهُل تداركُه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيانُ ولم يثبتْ، وإذا تهدَّم شيءٌ من الأساس سقط البنيانُ أو كاد.

فالعارف همَّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهلُ يرفع في البناء عن غير أساس؛ فلا يلبث بنيانه أن يسقط.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وهذا الأساس أمران: صحةُ المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته. **والثاني**: تجريدُ الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فإذا كملَ البناءُ؛ فبيِّضْه بحسن الخلق والإحسان إلىٰ الناس، ثم حُطْهُ بسُورٍ من الحذر لا يقتحمه عدوٌّ ولا تبدو منه العورة، ثم أَرْخِ السُّتورَ علىٰ أبوابه، ثم أقْفِلِ البابَ الأعظم بالسكوت عما تخشىٰ عاقبته، ثم رَكِّبْ له مفتاحًا من ذكر الله به تفتحه

وتغلقه؛ فإن فتحتَ فتحتَ بالمفتاح، وإن أغلقتَ الباب أغلقتَه به، فتكون حينئذٍ قد بنيتَ حِصنًا تحصَّنتَ فيه من أعدائك؛ إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلًا، فييأس منك.

ثم تعاهدْ بناءَ الحصن كلَّ وقت؛ فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نَقَبَ عليك النقوبَ من بعيد بمعاول الذُّنوب.

فصل

ص: ٢٣١

أركان الكفر أربعة

أركان الكفر أربعةٌ: الكبرُ، والحسد، والغضب، والشهوة؛ فالكبر يمنعه الانقيادَ، والحسد يمنعه قبولَ النصيحة وبذلها، والغضبُ يمنعه العدلَ، والشهوة تمنعه التفرُّغَ للعبادة.

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلِي بها، ولا سيما إذا صارت هيئاتٍ راسخةً وملكاتٍ وصفاتٍ ثابتة.

وإذا تأملتَ كفرَ الأمم رأيتَه ناشئًا منها، وعليها يقع العذابُ، وتكون خفتُهُ وشدته بحسب خفتها وشدتها.

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربِّه وجهله بنفسه؛ فإنه لو عرفَ ربَّه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسَه بالنقائص والآفات؛ لم يتكبْر ولم يغضبْ لها ولم يحسُدْ أحدًا على ما آتاه الله.

فصل

ص: ٢٤٠

شجرة التوحيد في القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة

* **السَّنة شجرةٌ، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعته فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظلٌ، وإنما يكون الجَدَادُ يوم المعاد؛ فعند الجَدَاد يتبينُ حلو الثمار من مُرّها.**

* والإخلاص والتوحيد شجرةٌ في القلب؛ فروعها الأعمال، وثمرها طيب الحياة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ؛ فثمرة التوحيد والإخلاص في الدُّنيا كذلك.

* والشركُ والكذبُ والرياءُ شجرةٌ في القلب؛ ثمرها في الدنيا الخوف والهمُّ والغمّ وضيق الصدر وظلمةُ القلب، وثمرها في الآخرة الزقُّوم والعذابُ المقيم.

وقد ذكر الله هاتين الشجرتين في سورة إبراهيم.

فصل

ص: ٢٤١

أول مراتب السعادة: أذن واعية وقلب يعقل

إذا بلغ العبد أُعطِيَ عهدَه الذي عَهِدَه إليه خالقه ومالكه.

فإذا أخذ عهده بقوة وقبول وعزمٍ على تنفيذ ما فيه؛ صَلُح للمراتب والمناصب التي يَصلُح لها الموفون بعهودهم.

فأوَّلُ مراتب سعادته أن تكون له أذنٌ واعيةٌ وقلبٌ يَعقِل ما تَعِيْه الأذُن.

فإذا سمع، وعقلَ، واستبانتْ له الجادَّة، ورأى عليها تلك الأعلامَ، ورأى أكثر

الناس منحرفين عنها يمينًا وشمالًا، فلزمها، ولم ينحرف مع المنحرفين، الذين كان سببُ انحرافهم عدمَ قبول العهد، أو قبلوه بكُرهٍ ولم يأخذوه بقوةٍ ولا عزيمةٍ ولا حدَّثوا أنفسَهم بفهمه وتدبره والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه.

وإذا كانت همته أعلىٰ من ذلك ونفسه أشرف وقدره أعلىٰ أقبلَ علىٰ حفظ عهده وفهمه وتدبره، وعلم أن لصاحب العهد شأنًا ليس كشأن غيره، فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد، فوجدَه قد تعرف إليه وعرَّفه نفسَه وصفاتِه وأسماءه وأفعاله وأحكامه، فعرف من ذلك العهد: قيومًا بنفسه مقيمًا لغيره، غنيًّا عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه، مستوٍ علىٰ عرشه فوق جميع خلقه، يرىٰ ويسمع، ويرضىٰ ويغضب، ويحب ويبغضُ، ويدبر أمر مملكته وهو فوق عرشه متكلمٌ آمرٌ ناهٍ، يُرسل رسلَه إلىٰ أقطار مملكته بكلامه الذي يُسمِعه من يشاء من خلقه، وأنه قائمٌ بالقسط مُجازٍ بالإحسان والإساءة، وأنه حليمٌ غفور شكور جوادٌ محسنٌ، موصوفٌ بكل كمال، منزَّهٌ عن كل عيب ونقص، وأنه لا مِثلَ له، ويشهد حكمته في تدبير مملكته، وكيف يقدر مقاديره بمشيئةٍ غير مضادةٍ لعدله وحكمته، وتظاهر عنده العقل والشرع والفطرة فصدَّق كل منهما صاحبيه، وفَهِمَ عن الله سبحانه ما وصف به نفسه في كتابه من حقائق أسمائه التي بها نزل الكتاب وبها نطقَ ولها أثبتَ وحققَ وبها تعرَّفَ إلىٰ عباده حتىٰ أقرَّتْ به العقولُ وشهدتْ به الفِطرُ.

فإذا عرفَ بقلبه وتيقنَ صفاتِ صاحب العهد أشرقَتْ أنوارها علىٰ قلبه فصارت كالمعاينة له:

فرأىٰ حينئذ تعلُّقَها بالخلق والأمر وارتباطهما بها وسريانَ آثارهما في العالم الحسي والعالم الروحي.

وكذلك يفهم من العهد: كيف اقتضتْ أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع وأن لا يترك خلقه سُدىً، وكيف اقتضتْ ما تضمنتْه من الأوامر والنواهي، وكيف اقتضتْ وقوعَ الثواب والعقاب والمعاد، وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته؛ بحيث يُنزَّهُ عما زعم أعداؤُهُ من إنكار ذلك.

وبالله التوفيق.

فصل

ص: ٢٤٥

كلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي

خُلِق بدنُ ابنِ آدم من الأرض وروحُه من ملكوت السماء، وقُرِنَ بينهما:

فكلَّما خفَّ البدنُ لَطُفَتِ الروحُ وخفَّتْ وطلبت عالمها العلوي، وكلما ثَقُل وأخلدَ إلىٰ الشهوات والراحة ثقلتِ الروحُ وهبطتْ من عالمها وصارتْ أرضيةً سُفْليةً.

فترىٰ الرجلَ روحُه في الرفيق الأعلىٰ وبدنُه عندك، فيكون نائمًا علىٰ فراشِه وروحُه عند سدرة المنتهىٰ تجول حول العرش، وآخرُ واقفٌ في الخدمة ببدنِه وروحُه في السفل تجول حول السفليات.

فإذا فارقت الروحُ البدنَ التحقتْ برفيقها الأعلىٰ أو الأدنىٰ؛ فعند الرفيق الأعلىٰ كلُّ قرةِ عين وكلُّ نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة، وعند الرفيق الأسفل كلُّ همّ وغمّ وضيق وحزن وحياة نكِدةٍ ومعيشة ضَنْكٍ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]؛ فذِكْره كلامه الذي أنزله علىٰ رسوله، والإعراض عنه ترك تدبره والعملِ به، والمعيشة الضنك فأكثر ما جاء في التفسير: أنها عذاب القبر.

فآثرْ أحسَن المعيشتين وأطيَبهما وأدومَهما! وأَشْق البدنَ بنعيم الروح ولا تُشْق الروحَ بنعيم البدن! فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون.

والله المستعان.

فصل

ص: ٢٤٧

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا

العارفُ لا يأمر الناسَ بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرون علىٰ تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم علىٰ دنياهم؛ فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضةٌ؛ فكيف يُؤمَر بالفضيلة من لم يُقِم الفريضة؟!

فإن صعُب عليهم ترك الذنوب؛ فاجتهد أن تحبّب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورةٌ علىٰ محبته؛ فإذا تعلقتْ بحبه هانَ عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها.

فصل

ص: ٢٤٨

بين رعاية الحقوق مع الضر ورعايتها مع العافية بون بعيد

* بين رعاية الحقوق مع الضرّ ورعايتها مع العافية بونٌ بعيدٌ.

* «**إن عبدي -كل عبدي- الذي يذكرني وهو ملاقٍ قِرنَه**»[١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٠) وضعفه.

فصل

معرفة الله سبحانه نوعان

* معرفة الله سبحانه نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس؛ البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة تُوجب الحياءَ منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلىٰ لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه.

* ولهذه المعرفة بابان واسعان:

باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتأملُ حكمتِه فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط علىٰ خلقه.

وجِماعُ ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنىٰ وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر؛ فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائه وقدره، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].



فصل

ص: ٢٥٠

أنواع المواساة

المواساةُ للمؤمنين أنواعٌ: مواساةٌ بالمال، ومواساةٌ بالجاه، ومواساةٌ بالبدن والخدمة، ومواساةٌ بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساةٌ بالتوجع لهم.

وعلىٰ قدر الإيمان تكون هذه المواساة؛ فكلما ضَعُفَ الإيمان ضعفت المواساةُ، وكلما قوي قويتْ.

وكان رسول الله ﷺ أعظمَ الناس مواساةً لأصحابه بذلك كله؛ فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له.

فصل

ص: ٢٥١

الجهل بالطريق يوجب التعب الكثير

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصودِ يُوجب التعبَ الكثير مع الفائدة القليلة؛ فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض، أو في عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب، أو عملٍ غفلَ فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرَّد عن مشاركة النفس فيه، أو عمل لم يشهد تقصيرهُ فيه فيقوم بعده في مقام الاعتذار منه، فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب. والله الموفق.

فصل

ص: ٢٥١

اعتراض العوارض للعبد في سيره إلى الله تعالى

إذا عزم العبدُ علىٰ السفر إلىٰ الله تعالىٰ وإرادته عرضَتْ له الخوادع والقواطع، فإن لم يقف معها وصدق في طلبه وسار ناظرًا إلىٰ مراد الله منه وما يحبه منه؛ بحيث يكون عبده الموقوف علىٰ محابِّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت؛ تعبَ بها أو استراح، تنعَّم أو تألم، أخرجتْه إلىٰ الناس أو عزلتْه عنهم، لا يختار لنفسه غيرَ ما يختاره له وليُّه وسيدُه، واقفٌ مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهونُ عليه أن يُقدِّم راحتَها ولذَّتها علىٰ مرضاة سيده وأمرِه؛ فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيءٌ البتة.

وبالله التوفيق.

فصل

ص: ٢٥٢

أنواع النعم

النعم ثلاثةٌ: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمةٌ منتظرةٌ يرجوها، ونعمةٌ هو فيها لا يَشعُر بها.

فإذا أراد الله إتمام نعمته علىٰ عبده عرَّفَه نعمتَه الحاضرة وأعطاه من شكره قيدًا يُقيِّدُها به حتىٰ لا تَشرُد؛ ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وعرَّفه النعمَ التي هو فيها ولا يشعر بها.

قاعدة جليلة

ص: ٢٥٢

الخواطر والأفكار هي مبدأ كل علم وعمل

مبدأُ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوعَ الفعل، وكثرةُ تكراره تعطي العادة.

فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها.

فصلاحُ الخواطر بأن تكونَ مراقِبةً لوليها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرةً علىٰ مرضاته ومحابِّه؛ فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدىٰ، ومن توفيقه كل رشدٍ، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاءٍ.

واعلم أن الخطراتِ والوساوسَ تُؤدِّي متعلقاتُها إلىٰ الفكر، فيأخذها الفكر فيؤدِّيها إلىٰ التذكُّر، فيأخذها الذِّكر فيؤدِّيها إلىٰ الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤدِّيها إلىٰ الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهلُ من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يُعطَ الإنسانُ إماتةَ الخواطر ولا القوةَ على قطعها؛ فإنها تَهجُم عليه هجومَ النفس؛ إلَّا أن قوة الإيمان والعقل تُعينُهُ على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دَفْع أقبحها وكراهته له ونفرته منه.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهةً بالرَّحى الدائرة التي لا تَسكُن ولا بد لها من شيء تطحنه؛ فإذا وُضع فيها حَبٌّ طحنتْه، وإن وُضع فيهاترابٌ أو حصى طحنتْه. فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرَّحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلةً قط، بل لا بد لها من شيءٍ يوضع فيها؛

فمن الناس من تطحن رحاه حَبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسَه وغيره، وأكثرهم يطحن رملًا وحصىً وتِبنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العَجْن والخَبْز تبيَّن له حقيقةُ طحينه.

فصل

ص: ٢٥٥
إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار

فإذا دفعتَ الخاطر الوارد عليك اندفعَ عنك ما بعده، وإن قبلتَه صار فكرًا جوالًا، فاستخدَم الإرادةَ، فتساعدتْ هي والفكر على استخدام الجوارح؛ فإن تعذَّر استخدامُها رجعا إلى القلب بالمُنَى والشهوة وتَوجُّهِه إلى جهة المراد.

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهلُ من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفع الدواء أن تَشغلَ نفسَك بالفكر فيما يَعنِيك دون ما لا يَعنِيك؛ فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه.

فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحقُّ شيء بإصلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعدُ بها أو تقرُبُ من إلهك ومعبودك الذي لا سعادةَ لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك.

ومن كان في خواطره ومجالاتِ فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك.

وإياك أن تُمكِّن الشيطانَ من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يُفسِدها عليك فسادًا يَصعُب تداركُه، ويُلقِي إليك أنواعَ الوساوس والأَفكار المضرة، ويَحُول بينك وبين

الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنتَه علىٰ نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك؛ فمثالك معه مثال صاحب رحًىٰ يطحن فيها جيدَ الحبوب، فأتاه شخصٌ معه حِمْلُ ترابٍ وبَعرٍ وفحم وغُثاء ليطحنه في طاحونه؛ فإن طرده ولم يُمكِّنه من إلقاء ما معه في الطاحون استمرَّ علىٰ طحن ما ينفعه، وإن مكنَّه من إلقاء ذلك في الطاحون أفسدَ ما فيها من الحَبّ وخرج الطحين كله فاسدًا.

وجِمَاع إصلاح ذلك: أن تَشغَل فكرَك في باب العلوم والتصورات بمعرفةَ ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلىٰ دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرُّز منها. وفي باب الإرادات والعُزوم أن تَشغَل نفسَك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطَرْحِ إرادة ما يضرُّك إرادتُهُ.

وعند العارفين أن تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضرُّ علىٰ القلب من نفس الخيانة، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها؛ فإن تمنّيها يَشغَل القلبَ بها ويملؤه منها ويجعلها همَّه ومرادهُ.

وأنت تجد في الشاهد: الملِك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخَدَمِه من هو مُتمنٍّ لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلئٌ منها، وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله؛ فإذا اطلع علىٰ سرِّه وقصدِه مَقَتَه غايةَ المقت، وأبغضَه، وقابله بما يستحقه، وكان أبغضَ إليه من رجل بعيد عنه جَنَىٰ بعضَ الجنايات وقلبُه وسِرُّه مع الملك غير منطوٍ علىٰ تمني الخيانة ومحبتها والحرص عليها؛ فالأول يتركها عجزًا واشتغالًا بما هو فيه وقلبه ممتلئٌ بها، والثاني يفعلها وقلبه كارهٌ لها ليس فيه إضمارُ الخيانة ولا الإصرار عليها؛ فهذا أحسنُ حالًا وأسلمُ عاقبةً من الأول.

* قال شقيق بن إبراهيم: أُغلِقَ بابُ التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلىٰ الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

فصل

ص: ٢٥٩

من لم يَعرِف نفسَه كيف يَعرِف خالقَه؟

فاعلم أن الله تعالىٰ خلق في صدرك بيتًا وهو القلب، ووضعَ في صدره عرشًا لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلىٰ؛ فهو مستوٍ علىٰ عرشه بذاته بائنٌ من خلقه، والمثل الأعلىٰ من معرفته ومحبته وتوحيده مستوٍ علىٰ سرير القلب، وعلىٰ السرير بِساطٌ من الرضىٰ، ووضع عن يمينه وشماله مَرافقَ شرائعِه وأوامره، وفتَح إليه بابا من جنة رحمته والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أنبتَ فيه أصنافَ الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس، وجعل في وسط البستان شجرة معرفة؛ فهي ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه، وأجرىٰ إلىٰ تلك الشجرة ما يَسقِيها من تدبر كلامه وفهمه والعمل بوصاياهُ، وعلّق في ذلك البيت قنديلًا أسرجَه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده؛ فهو يَستمِدُّ من ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ [النور: ٣٥]، ثم أحاط عليه حائطًا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يؤذي البستان؛ فلا يلحقه أذاهم، وأقام عليه حرسًا من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه.

وبالله التوفيق.

فصل

ص: ٢٦١

قلب المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله

* سئل سهل التستري: الرجل يأكل في اليوم أكلةً؟ قال: أكل الصديقين. قيل له: فأكلتين؟ قال: أكل المؤمنين. قيل له: فثلاث أكلاتٍ؟ فقال: قل لأهله يَبنُوا له مِعْلفًا.

* قلبُ المحب موضوعٌ بين جلال محبوبه وجماله؛ فإذا لاحظ جلاله هابهُ وعظَّمهُ، وإذا لاحظ جماله أحبه واشتاق إليه.

فائدة

ص: ٢٦٢

من الناس من يعرف ربه الجود ومنهم من يعرفه بالحلم أو بالعزة

من الناس من يَعرِف اللهَ بالجود والإفضال والإحسان، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته. وأعمُّ هؤلاء معرفةً من عرفَهُ من كلامه؛ فإنه يعرف ربًّا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال، منزَّهٌ عن المثال، بريءٌ من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن وكل وصف كمال، فعَّالٌ لما يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر علىٰ كل شيء، ومقيمٌ لكل شيء، آمرٌ، ناهٍ، متكلمٌ بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيءٍ، أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين.

فالقرآن أُنزِلَ لتعريف عباده به، وبصراطه المُوصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه.

فائدة

ص: ٢٦٢

من الآفات ملال العبد من نعم الله تعالى

من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمة أنعمَ الله بها عليه واختارها له، فَيَمَلُّها العبدُ ويطلب الانتقال منها إلىٰ ما يزعم لجهله أنه خيرٌ له منها، وربُّه برحمته لا يُخرِجه من تلك النعمة ويَعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتىٰ إذا ضاق ذرعًا بتلك النعمة وسَخِطَها وتبرَّمَ بها واستحكم مَلَلُه لها سَلَبه الله إياها؛ فإذا انتقل إلىٰ ما طلبه، ورأىٰ التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه؛ اشتدَّ قلقُه وندمه وطلبَ العودة إلىٰ ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورشدًا أشهدَه أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورَضَّاهُ به وأوزعَه شكره عليه؛ فإذا حدَّثتْه نفسُه بالانتقال عنه استخار ربَّه استخارةَ جاهلٍ بمصلحته عاجزٍ عنها مُفوِّضٍ إلىٰ الله طالبٍ منه حسنَ اختياره له.

فصل

ص: ٢٦٤

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواصِّ الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمُّهم معرفةً من عرفه بكماله وجلاله وجماله، سبحانه ليس كمثله شيءٌ في سائر صفاته.

ولو فرضتَ الخلقَ كلهم علىٰ أجملهم صورةً، وكلهم علىٰ تلك الصورة، ونسبتَ جمالهم الظاهر والباطن إلىٰ جمال الرب سبحانه؛ لكان أقلَّ من نسبة سراج ضعيف إلىٰ قُرْصِ الشمس.

ويكفي في جماله أنه لو كشفَ الحجابَ عن وجهه لأحرقتْ سُبُحاتُه ما انتهىٰ

إليه بصره من خلقه[١].

ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته؛ فما الظنُّ بمن صدر عنه هذا الجمال؟!

ويكفي في جماله أنه له العزة جميعًا، والقوة جميعًا، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات؛ كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلماتُ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة**»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود: ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه؛ فهو سبحانه نور السماوات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تُشرِق الأرضُ بنوره[٣].

ومن أسمائه الحسنىٰ: الجميل.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[٤].

وجماله سبحانه على أربعة مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء.

فعلىٰ العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم

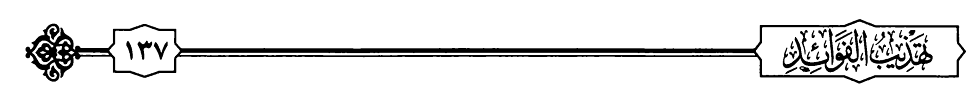
---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (قطعة من الجزء ١٣/ ٥٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٧٩). وسنده ضعيف.

(٤) أخرجه مسلم (٩١).



أنه لا مُحسِن علىٰ الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو، فيحبه لإحسانه وإنعامه ويحمده علىٰ ذلك؛ فيحبه من الوجهين جميعًا.

وكما أنه ليس كمثله شيءٌ؛ فليس كمحبته محبةٌ.

والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها؛ فإنها غاية الحب بغاية الذُّل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملًا.

وحمده يتضمن أصلين: الإخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها؛ فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامدًا، ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامدًا؛ حتىٰ يجمع الأمرين.

فصل

ص: ٢٦٨

من الجمال الذي يحبه الله أن يرى أثر نعمته على عبده

* وقوله في الحديث: «**إن الله جميل يُحِبُّ الجمال**»[١] يتناول جمال الثياب المسؤول عنه في نفس الحديث، ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء.

كما في الحديث الآخر: «**إن الله نظيفٌ يحب النظافة**»[٢].

وفي الصحيح: «**إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيبًا**»[٣].

وفي «السنن»: «**الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده**»[٤].

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) وضعفه.

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨١٩) وحسنه.

وفيها: عن أبي الأحوص الجُشَمي، عن أبيه؛ قال: رآني النبي ﷺ وعليَّ أطمارٌ، فقال: «**هل لك من مال؟**». قلت: نعم. قال: «**من أي المال؟**». قلت: من كل ما آتىٰ الله من الإبل والشاء. قال: «**فلتَرَ نعمتُه وكرامتُه عليك**»(١).

فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته علىٰ عبده؛ فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره علىٰ نعمه، وهو جمال باطن؛ فيحب أن يرىٰ علىٰ عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها.

ولمحبته سبحانه للجمال أنزل علىٰ عباده لباسًا وزينةً تُجمِّل ظواهرهم وتقوىٰ تُجمِّل بواطنهم فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال في أهل الجنة: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١١ - ١٢]؛ فجمَّلَ وجوهَهم بالنضرة وبواطنَهم بالسرور وأبدانَهم بالحرير.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل علىٰ أصلين عظيمين؛ فأوله معرفة، وآخره سلوكٌ؛ فيُعرَف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيءٌ، ويُعبَد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق؛ فيحب من عبده أن يُجمِّل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار؛ فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة؛ فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه؛ فجمعَ الحديثُ قاعدتين: المعرفة، والسلوك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٨/ ١٨٠). وصححه الترمذي.

ص: ٢٧١

فصل

أنفع شيء للعبد صدق العزيمة

ليس للعبد شيءٌ أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة؛ فيَصدُقه في عزمه وفي فعله؛ قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل. فصدق العزيمة جَمْعُها وجزمُها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمةً لا يشوبها ترددٌ ولا تلوُّمٌ. فإذا صدقتْ عزيمتُه بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغُ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيءٍ من ظاهره وباطنه. فعزيمةُ القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور.

ومن صَدَقَ اللهَ في جميع أموره صنعَ الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنىٰ يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

ص: ٢٧٢

فائدة جليلة في القدر

ربٌّ ذو إرادة أمر عبدًا ذا إرادة:

فإن وفقه أراد من نفسه أن يُعِينه ويُلهِمه فعلَ ما أمر به.

وإن خَذلَه خلَّاه وإرادته ونفسه، وهو من هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعُه؛ فهو من حيث هو إنسانٌ لا يريد إلا ذلك، ولذلك ذمَّه الله في كتابه من هذه الحيثية، ولم يمدحه إلا بأمر زائدٍ علىٰ تلك الحيثية، وهو كونه مسلمًا ومؤمنًا وصابرًا ومحسنًا وشكورًا وتقيًّا وبرًّا ونحو ذلك، وهذا أمرٌ زائدٌ علىٰ مجرد كونه إنسانًا وإرادته صالحة، لكن لا يكفي مجرد صلاحيتها إن لم تؤيَّد بقدر زائد علىٰ

ذلك، وهو التوفيق؛ كما أنه لا يكفي في الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يَحصُلْ سببٌ آخر من النور المنفصل عنها.

فصل

ص: ٢٧٢

من أعظم الجهل طلب التعظيم من الناس

من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبُك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره؛ فإنك تُوقِّر المخلوقَ وتُجِلُّه أن يراك في حال لا تُوقِّر الله أن يراك عليها!

قال تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي لا تعاملونه معاملةَ من توقِّرونه، والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ [الفتح: ٩]؛ قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه؟! وقال مجاهدٌ: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة. وقال ابن عباس: لا تعرفون حقَّ عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلىٰ معنىٰ واحد، وهو أنهم لو عظَّموا الله وعرفوا حقَّ عظمته وحَّدوه وأطاعوه وشكروه؛ فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب.

ومن وقار الله أن يستحيي من اطلاعه علىٰ سِرِّه وضميره فيرىٰ فيه ما يكره.

ومن وقاره أن يستحيي منه في الخلوة أعظم مما يستحيي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يُوقِّر الله وكلامَه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يَطلب من الناس توقيَره وتعظيمه؟!

فائدة

ص: ٢٧٦

الناس في الحياة الدنيا مسافرون

الناس منذ خُلِقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار.

والعاقل يعلم أن السفر مبنيٌّ علىٰ المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادةً أن يُطلَب فيه نعيمٌ ولذَّةٌ وراحةٌ، إنما ذاك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأةِ قَدَمٍ أو كل آنٍ من آناتِ السفر غير واقفةٍ، ولا المكلف واقفٌ، وقد ثبت أنه مسافرٌ علىٰ الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلىٰ قدمِ الاستعداد للسير.

فائدة

ص: ٢٧٨

هجر العوائد وقطع العلائق

طالبُ النفوذ إلىٰ الله والدار الاخرة -بل وإلىٰ كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأسًا في ذلك مُقتدىً به فيه- يحتاج أن يكون شجاعًا، مِقدامًا، حاكمًا علىٰ وهمه، غيرَ مقهور تحت سلطان تخيُّله، زاهدًا في كل ما سوىٰ مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه، مِقدامَ الهمة، ثابت الجأش، لا يَثنيهِ عن مطلوبه لومُ لائم ولا عذلُ عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تَستفِزُّه المعارضات، شعارُه الصبر، وراحته التعب، محبًّا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته، لا يخالط الناس إلا علىٰ حذر كالطائر الذي يلتقط الحبَّ بينهم، قائمًا علىٰ نفسه بالرغبة والرهبة، طامعًا في نتائج الاختصاص علىٰ بني جنسه، غيرَ مرسلٍ شيئًا من حواسِّه عبثًا، ولا مُسرِّحًا خواطره في مراتب الكون.



ومِلاكُ ذلك هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب.

وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطِّراح الأدب مع الكشف.

ص: ٢٧٨

فائدة

أفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان

من الذاكرين من يبتدئُ بذكرِ اللسان، وإن كان علىٰ غفلة، ثم لا يزال فيه حتىٰ يحضر قلبه، فيتواطأ علىٰ الذكر. ومنهم من لا يرىٰ ذلك، ولا يبتدئُ علىٰ غفلةٍ، بل يسكن حتىٰ يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه؛ فإذا قوي استتبع لسانه، فتواطأ جميعًا.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

ص: ٢٧٩

فصل

أعظم الناس منفعة من أعان على الخير

أنفع الناس لك رجل مكَّنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرًا أو تَصنع إليه معروفًا؛ فإنه نِعمَ العونُ لك على منفعتك وكمالك؛ فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر.

وأضر الناس عليك من مكَّن نفسَه منك حتىٰ تعصي الله فيه؛ فإنه عونٌ لك علىٰ مضرتك ونقصك.

ص: ٢٧٩

المعاصي ممزوجة بالقبح والألم

فصل

اللذَّةُ المحرمة ممزوجةٌ بالقبح حال تناولها، مُثمِرة للألم بعد انقضائها؛ فإذا اشتدت الداعية منك إليها ففكِّرْ في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها؛ ثم وازِنْ بين الأمرين، وانظر ما بينهما من التفاوت.

والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن، مثمرٌ للذَّة والراحة؛ فإذا ثقلتْ علىٰ النفس ففكِّرْ في انقطاع تعبها وبقاء حسنها ولذَّتها وسرورها، ووازِنْ بين الأمرين، وآثرِ الراجحَ علىٰ المرجوح.

ص: ٢٨٠

لله تعالى في كل عضو أمر ونهي

فصل

لله علىٰ العبد في كل عضو من أعضائه أمرٌ، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه نعمةٌ، وله به منفعةٌ ولذةٌ. فإن قام لله في ذلك العضو بأمره، واجتنب فيه نهيَه فقد أدَّىٰ شكر نعمته عليه فيه، وسعىٰ في تكميل انتفاعه ولذته به. وإن عطَّل أمر الله ونهيه فيه عطَّلهُ الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه في كل وقت من أوقاته عبوديةٌ تُقدِّمه إليه وتُقرِّبه منه، فإن شَغَل وقته بعبودية الوقت تقدم إلىٰ ربه. وإن شغله بهوىٰ أو راحة وبطالةٍ تأخر.

فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوفَ في الطريق البتة.

قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

فصل

ص: ٢٨١

قيام الخلق بين الأمر والنهي والعطاء والمنع

أقام الله سبحانه هذا الخلقَ بين الأمر والنهي والعطاء والمنع؛ فافترقوا فرقتين:

فرقة قابلتْ أمرَه بالترك، ونهيَه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسخط. وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك.

وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك؛ فإن أمرتَنا سارعنا إلىٰ الإجابة، وإن نهيتَنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتَنا حمدناك، وإن منعتَنا تضرَّعنا إليك وذكرناك.

فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا؛ فإذا مزَّقه عليهم الموت صاروا إلىٰ النعيم المقيم وقرة الأعين؛ كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة؛ فإذا مزَّقه الموت صاروا إلىٰ الحسرة والألم.

فصل

ص: ٢٨٢

التوحيد ألطف شيء وأنظفه

التوحيد ألطفُ شيءٍ وأنزهه وأنظفه وأصفاه؛ فأدنىٰ شيءٍ يَخدِشُه ويُدنِّسه ويُؤثر فيه؛ فهو كأبيض ثوبٍ يكون يُؤثر فيه أدنىٰ أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا أدنىٰ شيءٍ يُؤثر فيها، ولهذا تُشوِّشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفيَّة؛ فإن بادر صاحبه وقلعَ ذلك الأثرَ بضده، وإلَّا استحكمَ وصار طبعًا يتعسَّر عليه قلعُهُ.

فائدة

ص: ٢٨٣

كمال الفرح بالله تعالى لا يجتمع مع الشهوات المحرمة

ترك الشهوات لله وإن أنجىٰ من عذاب الله وأوجبَ الفوزَ برحمته؛ فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به لا تَحصُل في قلبٍ فيه غيره وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم؛ فإن الله سبحانه أبىٰ أن يجعل ذخائره في قلبٍ فيه سواه وهمتُه متعلقةٌ بغيره، وإنما يودِع ذخائرَه في قلب يرىٰ الفقر غنىٰ من الله والغنىٰ فقرًا دون الله، والعزَّ ذلًّا دونه والذُّلَّ عزًّا معه، والنعيمَ عذابًا دونه والعذاب نعيمًا معه.

وبالجملة فلا يرىٰ الحياةَ إلا به ومعه، والموت والألم والهمَّ والغمَّ والحزن إذا لم يكن معه؛ فهذا له جنتان: جنةٌ في الدنيا معجَّلةٌ، وجنةٌ يوم القيامة.

فائدة

ص: ٢٨٤

حقيقة الإنابة عكوف القلب على محبة الله تعالى

الإنابة هي عكوف القلب علىٰ الله ﷻ كاعتكاف البدن في المسجد لا يُفارِقه.

وحقيقة ذلك عكوف القلب علىٰ محبته، وذِكْره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح علىٰ طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله.

ومن لم يَعكُف قلبه علىٰ الله وحده عكَف علىٰ التماثيل المتنوعة؛ كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فإذا كان في القلب تماثيلُ قد ملكتْه واستعبدتْه بحيث يكون عاكفًا عليها؛ فهو نظير عكوف عبَّاد الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبدًا لها ودعا عليه بالتَّعَس والنكس، فقال: «**تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبد الدرهم، تَعِسَ وانتكس، وإذا شِيْكَ فلا انتقش**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

الناس في هذه الدار علىٰ جناح سفر كلهم، وكلُّ مسافر فهو ظاعنٌ إلىٰ مقصده ونازلٌ علىٰ من يُسَرُّ بالنزول عليه، وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعنٌ إلىٰ الله في حال سفره ونازلٌ عليه عند القدوم عليه؛ فهذه همته في سفره وفي انقضائه.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وقالت امرأةُ فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]؛ **فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة؛ فإن الجار قبل الدار.**

ص: ٢٨٧

قاعدة نافعة

أنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد

أصل الخير والشر من قبل التفكر؛ فإن الفكر مبدأُ الإرادة والطلب والزهد والترك والحب والبغض.

وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها؛ فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار. ويليها أربعةٌ: فكرٌ في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها. فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.

ورأس القسم الأول: الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما. وهذا الفكر يُثمِر لصاحبه المحبةَ والمعرفة؛ فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخسَّتها وفنائها؛ أثمرَ له ذلك الرغبةَ في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكَّر في قِصَر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجدَّ والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت. وهذه الأفكار تُعلِي

همته، وتُحييها بعد موتها وسفولها، وتجعله في وادٍ والناس في وادٍ.

وبإزاء هذه الأفكار الأفكارُ الرديئة التي تَجُول في قلوب أكثر هذا الخلق.

ص: ٢٨٩

إذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح

فصل

* الطلب لِقاحُ الإيمان؛ فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العملَ الصالح.

* وحسن الظن بالله لِقاح الافتقار والاضطرار إليه؛ فإذا اجتمعا أثمرا إجابةَ الدعاء.

* والخشية لِقاح المحبة؛ فإذا اجتمعا أثمرا امتثالَ الأوامر واجتناب المناهي.

* والصبر لِقاح اليقين؛ فإذا اجتمعا أورثا الإمامةَ في الدين؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

* وصحة الاقتداء بالرسول لِقاح الإخلاص؛ فإذا اجتمعا أثمرا قبولَ العمل والاعتداد به.

* والعمل لِقاح العلم؛ فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يُفِدْ شيئًا.

* والحلم لِقاح العلم؛ فإذا اجتمعا حصلتْ سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع.

* والعزيمة لِقاحُ البصيرة؛ فإذا اجتمعا نال صاحبهما خيرَ الدنيا والآخرة، وبلغتْ به همتُه من العلياء كلَّ مكان؛ فتخلُّف الكمالاتِ إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة.

* وحسن القصد لِقاحٌ لصحة الذهن؛ فإذا فُقِدا فُقِد الخيرُ كلُّه، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات.

* وصحة الرأي لِقاح الشجاعة؛ فإذا اجتمعا كان النصرُ والظفر، وإن فُقِدا فالخذلان والخيبة، وإن وُجد الرأي بلا شجاعة فالجبنُ والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي؛ فالتهور والعطب.

* والصبر لِقاح البصيرة؛ فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما؛ قال الحسن: إذا شئتَ أن ترىٰ بصيرًا لا صبرَ له رأيتَه، وإذا شئت أن ترىٰ صابرًا لا بصيرةَ له رأيتَه، فإذا رأيتَ صابرًا بصيرًا فذاك.

* والنصيحة لِقاح العقل، فكلما قويتِ النصيحةُ قوي العقلُ واستنار.

* والتذكُّر والتفكر كل منهما لِقاح الآخر، إذا اجتمعا أنتجا الزهدَ في الدنيا والرغبة في الآخرة.

* والتقوىٰ لِقاح التوكل؛ فإذا اجتمعا استقام القلب.

* ولِقاحُ أخذِ أُهبة الاستعداد للقاء قِصَرُ الأمل؛ فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما، والشر في فرقتهما.

* ولِقاح الهمة العالية النية الصحيحة؛ فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غايةَ المراد.

قاعدة

ص: ٢٩١

للعبد بين يدي الله موقفان

للعبد بين يدي الله موقفان: موقفٌ بين يديه في الصلاة، وموقفٌ بين يديه يوم لقائه. فمن قام بحق الموقف الأول هُوِّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يُوفِّه حقَّه شُدِّد عليه ذلك الموقف.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٦ - ٢٧].

ص: ٢٩١

لذة الآخرة أعظم ولذة الدنيا أقصر

قاعدة

اللَّذةُ من حيث هي مطلوبة للإنسان بل ولكلِّ حيٍّ؛ فلا تُذَمُّ من جهة كونها لذَّةً، وإنما تُذَمُّ ويكون تركها خيرًا من نيلها وأنفعَ إذا تضمنتْ فَواتَ لذَّةٍ أعظمَ منها وأكملَ، أو أعقبتْ ألمًا حصوله أعظم من ألم فواتها؛ فها هنا يظهر الفرق بين العاقل الفَطِن والأحمق الجاهل؛ فمتىٰ عرف العقلُ التفاوتَ بين اللَّذَّتين والألمين، وأنه لا نسبة لأحدهما إلىٰ الآخر؛ هانَ عليه تركُ أدنىٰ اللذتين لتحصيل أعلاهما، واحتمالُ أيسرِ الألمينِ لدفع أعلاهما.

وإذا تقررتْ هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدومُ، ولذة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا.

والمُعوَّل في ذلك علىٰ الإيمان واليقين؛ فإذا قوي اليقينُ وباشرَ القلب آثرَ الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ في جانب اللذة، واحتملَ الألمَ الأسهلَ علىٰ الأصعب. والله المستعان.

ص: ٢٩٢

من فوائد دعاء أيوب

فائدة

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]: جمع في هذا الدعاء بين: حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلىٰ ربه، ووجود طعم المحبة في التملُّق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره.

ومتىٰ وجدَ المبتلىٰ هذا كُشِفتْ عنه بلواه.

وقد جُرِّبَ أنه من قالها سبع مراتٍ -ولا سيما مع هذه المعرفة- كشفَ الله ضرَّه.

فائدة

ص: ٢٩٢

من فوائد دعاء يوسف

قوله تعالىٰ عن يوسف نبيه: إنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]: جمعتْ هذه الدعوةُ: الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة علىٰ الإسلام أجلّ غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء.

فائدة

ص: ٢٩٢

من أسرار التوحيد أن القلب لا يستقر إلا بالوصول إليه

قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] متضمنٌ لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيءٍ لا يُطلَب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلبٌ ممن ليس عنده ولا يَقدِرُ عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يُرَدْ لأجله ويتصلْ به فهو مضمحل منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهىٰ، وليس المنتهىٰ إلا إلىٰ الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلىٰ خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه؛ فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوبٍ لا يُحَبُّ لأجله فمحبته عَناءٌ وعذابٌ، وكل عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقيٌّ محجوبٌ عن سعادته وفلاحه.

فاجتمع ما يُراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، واجتمع ما يُراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾؛ فليس وراءه سبحانه غاية تُطلَب،

وليس دونه غايةٌ إليها المنتهىٰ.

وتحت هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئنُّ ويَسكُن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحَبّ ويُراد فمرادٌ لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحدٌ إليه المنتهىٰ، ويستحيل أن يكون المنتهىٰ إلىٰ اثنين؛ كما يستحيل أن يكون ابتداءُ المخلوقات من اثنين.

ص: ٢٩٤

اتصال العبد بربه ألا يحجبه شيء عنه

فائدة جليلة

لا يزال العبدُ منقطعًا عن الله حتىٰ تتصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلىٰ.

والمراد بهذا الاتصال: أن تُفضيَ المحبةُ إليه وتتعلق به وحده، فلا يَحجُبها شيءٌ دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فلا يَطمِس نورَها ظلمةُ التعطيل؛ كما لا يَطمِس نورَ المحبة ظلمةُ الشرك، وأن يتصل ذكره به سبحانه؛ فيزول بين الذاكر والمذكور حجابُ الغفلة والتفاتُه في حال الذكر إلىٰ غير مذكوره.

ص: ٢٩٦

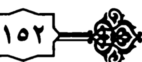
النعم كلها من الله وحده

قاعدة جليلة

فكَّرتُ في هذا الأمر؛ فإذا أصله:

أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده؛ نِعم الطاعات ونِعم اللَّذَّات، فترغب إليه أن يُلهمك ذكرَها ويُوزِعَك شكرَها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وكما أن تلك النعم منه ومن مجردِ فضله؛ فذِكرُها وشكرُها لا يُنال إلَّا بتوفيقه.

والذنوب من خِذلانه وتخلِّيه عن عبده وتَخليتِه بينه وبين نفسه، وإن لم



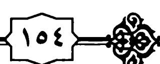
يكشفْ ذلك عن عبده فلا سبيلَ له إلىٰ كشفه عن نفسه؛ فإذا هو مضطرٌّ إلىٰ التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتىٰ لا تصدر منه، وإذا وقعتْ بحكم المقادير ومقتضىٰ البشرية فهو مضطر إلىٰ التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها.

فلا ينفكُّ العبد عن ضرورته إلىٰ هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاحَ له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ثم فكَّرتُ فإذا مدارُ ذلك علىٰ الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلِّب القلوب ومصرِّفها كيف يشاء؛ فإن وفَّق عبدَه أقبل بقلبه إليه وملأهُ رغبةً ورهبةً، وإن خذلَه تركه ونفسَه، ولم يأخذ بقلبه إليه، ولم يشأ له ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الحكيم العليم.



فهرس الموضوعات



فهرس الفوائد

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
للإنسانِ قوَّتانِ: قوةٌ علميةٌ نظريةٌ، وقوةٌ عمليةٌ إراديةٌ. وسعادتُهُ التامَّةُ موقوفةٌ علىٰ استكمال قوَّتيهِ العلميةِ والإرادية.	٢٣	٢٥
فإذا شَهدتِ القلوبُ من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنُهُ، فكيف لا تُحِبُّه، وتُنافِسُ فِي القُرْب منه، وتُنْفِقُ أنفاسها فِي التودُّد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كل ما سواه، ورضاهُ آثَر عندها من رِضىٰ كلِّ ما سواه؟! وكيف لا تلهَجُ بذكْرِهِ، ويصير حبُّه والشوقُ إليه والأُنسُ به هو غذاءها وقُوتَها ودواءَها؛ بحيثُ إن فقدتْ ذلك، فسدتْ وهلكتْ ولم تَنتفعْ بحياتِها؟!	٣١	٤١
للعبد سترٌ بينه وبين الله وسترٌ بينه وبين الناس؛ فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله؛ هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.	٣٣	٤٤
إضاعة الوقت أشدُّ من الموت؛ لأنَّ إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموتُ يقطعك عن الدنيا وأهلها.	٣٣	٤٤
الدُّنيا من أولها إلىٰ آخرها لا تُساوي غمَّ ساعة؛ فكيف بغمِّ العُمر؟!	٣٣	٤٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
أعظم الرِّبْح في الدُّنيا أن تشتغل نفسك كلَّ وقتٍ بما هو أولىٰ بها وأنفعُ لها في معادها.	٣٣	٤٥
المخلوق إذا خِفتَه؛ استوحشتَ منه وهربتَ منه، والربُّ تعالىٰ إذا خِفتَه؛ أنستَ به وقَرُبتَ إليه.	٣٤	٤٥
دافع الخطرةَ؛ فإن لم تفعل صارت فكرةً؛ فدافع الفكرة؛ فإن لم تفعل صارت شهوةً؛ فحارِبْها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّةً؛ فإن لم تُدافعها صارت فعلًا؛ فإن لم تتداركهُ بضدِّه صار عادةً، فيصعُبُ عليك الانتقالُ عنها.	٣٤	٤٥
لمَّا طلب آدمُ الخلود في الجنة من جانب الشجرة؛ عُوقِب بالخُروج منها، ولما طلب يوسفُ الخروج من السجن من جهة صاحب الرُّؤيا؛ لبث فيه بضع سنين.	٣٤	٤٦
قلةُ التوفيق، وفسادُ الرأي، وخفاءُ الحقِّ، وفسادُ القلبِ، وخُمولُ الذِّكْر، وإضاعةُ الوقت، ونفرةُ الخلق، والوحشةُ بين العبد وبين ربِّه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحقُ البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم،، ولباس الذُّلِّ، وإدالةُ العدوِّ، وضيقُ الصدر، والابتلاءُ بقُرَناءِ السَّوءِ الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهمِّ والغمِّ، وضنْكُ المعيشة، وكسفُ البال: تتولَّدُ من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولَّدُ الزرعُ عن الماء والإحراقُ عن النار. وأضدادُ هذه تتولَّدُ عن الطاعة.	٣٥	٤٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
إيَّاكَ والمعاصي؛ فإنَّها أذلَّتْ عِزَّ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ [البقرة: ٣٤] وأخرجتْ إقطاع ﴿ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥].	٣٨	٥١
ما زال يكتُبُ بدم النَّدَم سطور الحزن في القصص، ويُرسِلُها مع أنفاس الأسف، حتَّىٰ جاءه توقيعُ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].	٣٨	٥١
يا آدمُ! لا تَجزعْ من قولي لك: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]؛ فلك ولصالح ذُرِّيَّتِكَ خلقْتُها.	٣٨	٥١
الذنوبُ جِراحاتٌ، ورُبَّ جُرْحٍ وقع في مقتل.	٤٠	٥٥
من فَقَدَ أُنْسَهُ بالله بين الناس ووجدَه في الوَحْدَةِ؛ فهو صادقٌ ضعيفٌ، ومن وجدَهُ بين الناس وفقدَهُ في الخلوة؛ فهو معلولٌ، ومن فقدَهُ بين الناس وفي الخلوة؛ فهو ميتٌ مطرودٌ، ومن وَجَدَهُ في الخلوةِ وفي الناس؛ فهو المحبُّ الصادقُ القويُّ في حالِهِ.	٤١	٥٨
تلمَّحَ القومُ الوجودَ، ففهِموا المقصودَ، فأجمعوا الرحيلَ قبل الرحيل، وشمَّروا للسيرِ في سواءِ السبيل؛ فالناسُ مشتغلون بالفضلاتِ، وهم في قطع الفلواتِ، وعصافيرُ الهوىٰ في وَثاقِ الشبكةِ ينتظرونَ الذبحَ.	٤٤	٦٤
غَرْسُ الخَلْوَةِ يُثْمِرُ الأنسَ.	٤٥	٦٨
استوحِشْ مما لا يدومُ معكَ، واستأنِسْ بمَن لا يفارِقُك.	٤٥	٦٨

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
حَميَّتُكَ لنفسِكَ أثرُ الجهل بها؛ فلو عَرَفْتَها حقَّ معرِفَتِها أعَنْتَ الخصمَ عليها.	٤٦	٦٨- ٦٩
أَوْثِقْ غضبَكَ بسلسلة الحِلْم؛ فإنَّه كلبٌ؛ إنْ أَفْلَتَ أَتلفَ.	٤٦	٦٩
الاجتماعُ بالإخوانِ قسمانِ: أحدُهُما: اجتماعٌ علىٰ مؤانسةِ الطبع وشُغْلِ الوقتِ؛ فهذا مَضَرَّتُهُ أرجحُ من منفعتِهِ، وأقلُّ ما فيه أنَّه يُفْسِدُ القلبَ ويُضيِّعُ الوقتَ. الثاني: الاجتماعُ بهم علىٰ التعاونِ علىٰ أسباب النَّجاةِ والتَّواصي بالحقِّ والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمةِ وأنفعها، ولكنَّ فيه ثلاث آفاتٍ: إحداها: تزيُّنُ بعضهم لبعضٍ. الثانيةُ: الكلامُ والخِلْطة أكثر من الحاجةِ. الثالثةُ: أن يصيرَ ذلك شهوةً وعادةً ينقطعُ بها عن المقصود.	٤٦	٧١
أنفعُ العمل أنْ تغيبَ فيه عن الناس بالإخلاص، وعن نفسك بشهود المِنَّة؛ فلا ترىٰ فيه نفسك ولا ترىٰ الخلق.	٥١	٨٠
أصولُ الخطايا كلِّها ثلاثةٌ: الكبْرُ: وهو الذي أصار إبليسَ إلىٰ ما أصارهُ، والحِرْصُ: وهو الذي أخرج آدم من الجنَّة، والحسدُ: وهو الذي جَرَّأ أحدَ ابنَي آدمَ علىٰ أخيهِ؛ فمنْ وُقِي شَرَّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشَّرَّ؛ فالكفرُ من الكِبر، والمعاصي من الحِرْص، والبَغْيُ والظُّلْمُ من الحسد.	٥١	٨٠
أخسرُ الناسِ صفقةً من اشْتَغَلَ عن الله بنفسِهِ، بل أخسرُ منه من اشْتَغَلَ عن نفسِهِ بالناس.	٥١	٨١

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. علَّقَ سبحانَه الهدايةَ بالجهادِ؛ فأكملُ الناسِ هدايةً أعظمُهم جهادًا، وأفرضُ الجهادِ جهادُ النفس وجهادُ الهوىٰ وجهادُ الشيطان وجهادُ الدُّنيا؛ فمنْ جاهدَ هذه الأربعةَ في الله هداه الله سُبلَ رضاهُ الموصلة إلىٰ جنَّتِهِ، ومن تركَ الجهادَ فاتَهُ من الهُدىٰ بحسب ما عطَّلَ من الجهاد.	٥٢	٨٢
يا مغرورًا بالأماني! لُعِنَ إبليسُ وأُهْبِطَ من منزل العزِّ بتَرْكِ سجدةٍ واحدةٍ أُمِر بها، وأخْرَجَ آدم من الجنَّةِ بلُقمةٍ تناوَلَها	٥٥	٨٧
فلا تأمَنْهُ أن يَحبِسَكَ في النارِ بمعصيةٍ واحدةٍ من معاصيه؛ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]! دخلتِ امرأةٌ النارَ في هِرَّةٍ. وإنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمة لا يُلقي لها بالًا يَهْوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب.	٥٥	٨٧- ٨٨
لو لا تقديرُ الذنب هلكَ ابنُ آدمَ من العُجْبِ.	٥٧	٩٤
المحبُّ يَهرُبُ إلىٰ العزلة والخلوة بمحبوبه والأُنْسِ بذكره كهَرَبِ الحوتِ إلىٰ الماء والطفلِ إلىٰ أمِّهِ. وأخْرُجُ من بينِ البيوتِ لعلَّني أحدِّثُ عنك القلبَ بالسِّرِّ خاليًا	٥٨	٩٦
سبحان الله! ظاهرُك متجمِّلٌ بلباس التَّقوىٰ، وباطنُك باطيةٌ لخمر الهوىٰ، فكلَّما طيَّبتَ الثوبَ فاحتْ رائحةُ المسكِرِ من تحته، فتباعدَ منك الصادقون، وانحاز إليك الفاسقون.	٥٨	٩٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
سبحان الله! في النفس: كِبْرُ إبليسُ، وحسدُ قابيل، وعُتُوُّ عادٍ، وطغيانُ ثمودَ، وجرأةُ نمرود، واستطالةُ فرعون، وبَغْيُ قارون، وقِحَةُ هامان، وهَوَىٰ بَلْعام، وحِيَلُ أصحابِ السبت، وتمرُّدُ الوليد، وجهل أبي جهل. وفيها من أخلاق البهائم: حِرصُ الغُراب، وشَرَهُ الكلب، ورُعونة الطاووس، ودناءة الجُعَل، وعقوق الضبِّ، وحِقدُ الجمل، ووثوبُ الفهد، وصَولةُ الأسد، وفِسقُ الفأرة، وخُبثُ الحية، وعَبَثُ القرد، وجمعُ النملة، ومكر الثعلب، وخِفَّةُ الفَراش، ونوم الضَّبُع. غير أنَّ الرياضة والمجاهدة تُذْهِبُ ذلك.	٦٤	١٠٦-١٠٧
لو استنشقتَ ريحَ الأسحار لأفاقَ منك قلبُك المخمورُ.	٦٥	١١٢
أصولُ المعاصي كلِّها -كبارها وصغارها- ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغير الله، وطاعةُ القوة الغضبيَّة، والقوة الشهوانيَّةِ. وهي: الشركُ، والظلمُ، والفواحشُ. فغايةُ التعلُّق بغير الله: الشركُ وأن يُدْعىٰ معه إلهٌ آخرُ، وغايةُ طاعة القوَّة الغضبيَّة: القتلُ، وغايةُ طاعة القوَّةِ الشهوانيَّة: الزِّنىٰ. ولهذا جمعَ الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].	٦٧	١١٦-١١٧

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فكلُّ من أعرضَ عن عبوديَّةِ اللهِ وطاعتِه ومحبَّتِه بُلِيَ بعبوديَّة المخلوق ومحبَّتِه وخدمتِه. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].	٧١	١٢١
وقد أجمع العارفون علىٰ أن كل خيرٍ فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شرٍّ فأصله خِذلانه لعبده. وأجمعوا أن التوفيق أن لا يَكِلَك الله إلىٰ نفسك، وأن الخذلان هو أن يُخليَ بينك وبين نفسك. فإذا كان كل خيرٍ فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد؛ فمفتاحه الدعاء والافتقارُ وصدقُ اللَّجأ والرغبة والرهبة إليه؛ فمتىٰ أعطىٰ العبدَ هذا المفتاحَ فقد أراد أن يفتح له، ومتىٰ أضله عن المفتاح بقي باب الخير مُرْتَجًا دونه.	٨٠	١٤١
ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوة القلب والبعدِ عن الله.	٨١	١٤٢
من أراد صفاءَ قلبه فليُؤْثِر الله علىٰ شهوته.	٨١	١٤٢
القلوب المتعلقةُ بالشهوات محجوبةٌ عن الله بقدر تعلُّقها بها.	٨١	١٤٢
الشوقُ إلىٰ الله ولقائه نسيمٌ يَهُبُّ علىٰ القلب يُرَوِّحُ عنه وَهَجَ الدُّنيا.	٨١	١٤٣
القلب يَمرضُ كما يمرض البدنُ، وشفاؤهُ في التوبة والحِمْية، ويَصْدَأ كما تَصْدأ المرآةُ، وجلاؤهُ بالذكر، ويَعْرَىٰ كما يَعْرَىٰ الجسمُ، وزينتُهُ التَّقوىٰ، ويجوعُ ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفةُ والمحبة والتوكل والإنابة والخدمةُ.	٨٢	١٤٣

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
من شُغل بنفسه شُغِلَ عن غيره، ومن شُغِل بربِّه شُغِل عن نفسه.	٨٢	١٤٤
الإخلاصُ: هو ما لا يعلمه مَلَكٌ فيكتبه، ولا عدوٌّ فيُفسِدهُ، ولا يُعجَبُ به صاحبه فيُبطِله.	٨٢	١٤٤
للقلب ستة مواطنَ يجولُ فيها لا سابعَ لها؛ ثلاثةٌ سافلة، وثلاثةٌ عاليةٌ: فالسافلةُ: دنيا تتزيَّنُ له، ونفسٌ تحدِّثُه، وعدوٌّ يوسوسُ له. فهذه مواطنُ الأرواح السافلة التي لا تزالُ تجولُ فيها. والثلاثة العاليةُ: علمٌ يتبيَّنُ له، وعقلٌ يرشدُه، وإلهٌ يعبدُه. والقلوب جوَّالةٌ في هذه المواطن.	٨٢-٨٣	١٤٤
الهمَّةُ العليَّةُ لا تزالُ حائمةً حول ثلاثة أشياء: تعرُّفٌ لصفةٍ من الصفات العليا تزدادُ بمعرفتها محبةً وإرادةً، وملاحظةٌ لمِنَّةٍ تزدادُ بملاحظتها شُكرًا وطاعة، وتذكُّرٌ لذنبٍ تزدادُ بتذكُّرِهِ توبةً وخشيةً؛ فإذا تعلَّقتِ الهمةُ بسوى هذه الثلاثة جالتْ في أودية الوساوس والخطرات.	٨٣	١٤٥
أفضلُ ما اكتسبتْه النفوسُ وحصَّلتْهُ القلوب ونال به العبدُ الرِّفْعةَ في الدُّنيا والآخرة هو العلم والإيمان. ولهذا قرنَ بينَهما سبحانَه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].	٨٥	١٥١

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
من اشتغل بالله عن نفسه كفاهُ الله مؤونَة نفسِه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونةَ الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وَكَلهُ الله إلىٰ نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وَكَلهُ الله إليهم.	٨٦	١٥٦
إنما يَجِدُ المشقةَ في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله، فأما من تركَها صادقًا مخلصًا من قلبه لله؛ فإنه لا يجد في تركها مشقةً إلّا في أول وهلة، ليُمْتحن أصادقٌ هو في تركها أم كاذبٌ؟ فإن صبرَ علىٰ تلك المشقة قليلًا استحالتْ لذَّةً.	٨٧	١٥٦
عشرةُ أشياء ضائعةٌ لا يُنتفع بها: علمٌ لا يُعمَل به، وعملٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداء، ومالٌ لا يُنْفَقُ منه فلا يَستمتِعُ به جامعُه في الدُّنيا ولا يُقدِّمُه أمامَه إلىٰ الآخرة، وقلبٌ فارغٌ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدنٌ معطَّلٌ من طاعته وخدمته، ومحبةٌ لا تتقيَّدُ برِضىَ المحبوب وامتثال أوامره، ووقتٌ معطَّلٌ عن استدراك فارطٍ أو اغتنام برٍّ وقُربةٍ، وفكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ، وخدمةُ من لا تُقرِّبُك خدمتُه إلىٰ الله ولا تعودُ عليك بصلاح دُنياك، وخوفُك ورجاؤُك لمن ناصيته بيد الله وهو أسيرٌ في قبضته ولا يَملِك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.	٩٠	١٦٢

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
والله سبحانه قد أمر العبد بأمر، وضَمِنَ له ضمانًا؛ فإن قام بأمره بالنُّصح والصدق والإخلاص والاجتهاد؛ قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج.	٩٣	١٦٦
الزهد أقسامٌ: زهدٌ في الحرام، وهو فرضُ عين. وزهدٌ في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة: فإن قويتْ التحقتْ بالواجب، وإن ضعُفتْ كان مستحبًا. وزهدٌ في الفضول. وزهدٌ فيما لا يَعنِي من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره. وزهدٌ في الناس. وزهدٌ في النفس بحيث تَهُون عليه نفسُه في الله. وزهدٌ جامعٌ لذلك كله، وهو الزهدُ فيما سوىٰ الله وفي كل ما شَغَلك عنه.	٩٥	١٧٠- ١٧١
قال سهل بن عبد الله: ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي؛ لأنَّ آدم نُهِي عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يُتَب عليه.	٩٦	١٧١
وهذا هو الصوابُ في مسألة الأمر بالشيء؛ هل هو نهيٌ عن ضدِّه أم لا؟ فهو نهيٌ عنه من جهة اللُّزوم لا من جهة القصد والطلب.		١٧٩

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فتُذِلُّه نِعمُ الله عليه، وتكْسِره كسرةَ من لا يرىٰ لنفسه ولا فيها خيرًا البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتُحدِثُ له النعمُ ذلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعبَّرُ عنه؛ فكلما جدَّد لهُ نعمةً ازداد له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبّةً وخوفًا ورجاءً.	١٠٧	٢٠١
الصبرُ علىٰ الشهوة أسهلُ من الصبر علىٰ ما تُوجِبُهُ الشهوةُ.	١٠٨	٢٠٢
للأخلاق حدٌّ متىٰ جاوزتْه صارت عُدوانًا، ومتىٰ قصَّرتْ عنه كان نقصًا ومهانةً.	١٠٨	٢٠٣
قال أبو الدرداءِ ﷺ: يا حبَّذا نومُ الأكياس وفِطْرُهم؛ كيف يغبنون به قيام الحمقىٰ وصومهم؛ والذرةُ من صاحب تقوىٰ أفضلُ من أمثال الجبال عبادةً من المُغترِّين؟!	١١٠	٢٠٦
ينبغي لحامل القرآن أن يُعَرفَ بليله إذا الناسُ نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصَمْتِه إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.	١١٣	٢١٤
وإنَّ للملَكِ لَمَّةً وللشيطان لَمَّةً: فلَمَّةُ الملك إيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحقِّ؛ فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله. ولَمَّةُ الشيطان إيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ؛ فإذا رأيتُم ذلك فتعوَّذوا بالله.	١١٣-١١٤	٢١٤

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
إني لأُبغِضُ الرجلَ أن أراهُ فارغًا ليس في شيءٍ من عمل الدُّنيا ولا عمل الآخرة.	١١٤	٢١٤
إنَّ للقلوب شهوةً وإدبارًا؛ فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودَعُوها عند فترتها وإدبارها.	١١٤	٢١٥
ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.	١١٤	٢١٦
إذا أحب الرجل أن يُنصِف من نفسه فليأتِ إلىٰ الناس الذي يُحِب أن يؤتىٰ إليه.	١١٤	٢١٧
اطلبْ قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالِس الذِّكر، وفي أوقات الخلوة؛ فإن لم تجدهُ في هذه المواطن فسَلِ الله أن يَمُنَّ عليك بقلبٍ؛ فإنه لا قلبَ لك.	١١٥	٢١٨
لا يجتمع الإخلاصُ في القلب ومحبةُ المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلَّا كما يجتمع الماءُ والنار والضبُّ والحوتُ.	١١٦	٢١٩
لذَّةُ كل أحدٍ علىٰ حسب قدره وهمته وشرفِ نفسه: فأشرفُ النَّاس نفسًا وأعلاهم همةً وأرفعهم قدرًا من لذَّتُهُ في معرفة الله ومحبَّته والشوق إلىٰ لقائه والتودُّد إليه بما يحبُّه ويرضاه؛ فلذَّتُه في إقباله عليه وعكوف همَّته عليه. ودون ذلك مراتبُ لا يُحصيها إلَّا الله.	١١٦	٢٢٠

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
ذكر ابنُ سعد في «الطبقات» عن عمر بن عبد العزيز: أنه كان إذا خطب على المنبر، فخاف على نفسه العُجْبَ قطعهُ. وإذا كتب كتابًا، فخاف فيه العُجْبَ مزَّقه. ويقولُ: اللهمَّ! إنِّي أعوذُ بك من شرِّ نفسي.	١١٨	٢٢٣
من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زِيدَ في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقصَ من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قُربه من الناس وقضاءِ حوائجهم والتواضع لهم.	١٢٠	٢٢٧
أركان الكفر أربعةٌ: الكبرُ، والحسد، والغضب، والشهوة؛ فالكبر يمنعه الانقيادَ، والحسد يمنعه قبولَ النصيحة وبذلها، والغضبُ يمنعه العدلَ، والشهوة تمنعه التفرُّغَ للعبادة.	١٢٢	٢٣١
السَّنة شجرةٌ، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعته فثمرة شجرته طيبةٌ، ومن كانت في معصيةٍ فثمرته حنظلٌ، وإنما يكون الجَدَادُ يوم المعاد؛ فعند الجَدَاد يتبينُ حلو الثمار من مُرّها.	١٢٣	٢٤٠
فآثِرْ أحسَن المعيشتين وأطيَبهما وأدومَهما! وأَشْقِ البدنَ بنعيم الروح ولا تُشْقِ الروحَ بنعيم البدن! فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون.	١٢٦	٢٤٦-٢٤٧

الإحالة في الأصل	رقم الصفحة	الفائدة
٢٥٢-٢٥٣	١٣٠	مبدأُ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلىٰ الإرادات، والإرادات تقتضي وقوعَ الفعل، وكثرةُ تكراره تعطي العادة. فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها.
٢٥٤-٢٥٥	١٣٠	ومعلوم أنه لم يُعطَ الإنسانُ إماتةَ الخواطر ولا القوةَ علىٰ قطعها؛ فإنها تَهجُم عليه هجومَ النفس؛ إلَّا أن قوة الإيمان والعقل تُعِينُهُ علىٰ قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلىٰ دَفْع أقبحها وكراهته له ونفرته منه. وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهةً بالرَّحىٰ الدائرة التي لا تَسكُن ولا بد لها من شيء تطحنه؛ فإذا وُضع فيها حَبٌّ طحنتْه، وإن وُضع فيها ترابٌ أو حصىٰ طحنتْه. فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرَّحىٰ، ولا تبقىٰ تلك الرحىٰ معطلةً قط، بل لا بد لها من شيءٍ يوضع فيها.
٢٥٥	١٣١	فإذا دفعتَ الخاطر الوارد عليك اندفعَ عنك ما بعده، وإن قبلتَه صار فكرًا جوالًا، فاستخدَم الإرادةَ، فتساعدتْ هي والفكر علىٰ استخدام الجوارح؛ فإن تعذَّر استخدامُها رجعا إلىٰ القلب بالمُنَىٰ والشهوة وتَوجُّهِه إلىٰ جهة المراد. ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهلُ من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحقُّ شيءٍ بإصلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعدُ بها أو تقرُبُ من إلهك ومعبودك الذي لا سعادةَ لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكلُّ الشقاء في بعدك عنه وسخطِه عليك.	١٣١	٢٥٥
وجماله سبحانه علىٰ أربعة مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء.	١٣٦	٢٦٥
والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها؛ فإنها غاية الحب بغاية الذُّل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه.	١٣٧	٢٦٧
أنفع الناس لك رجل مكَّنك من نفسه حتىٰ تزرع فيه خيرًا أو تَصنع إليه معروفًا؛ فإنه نِعمَ العونُ لك علىٰ منفعتك وكمالك؛ فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر.	١٤٢	٢٧٩
فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوفَ في الطريق البتة. قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].	١٤٣	٢٨٠
وقالت امرأةُ فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]؛ فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة؛ فإن الجار قبل الدار.	١٤٦	٢٨٥

الفائدة	رقم الصفحة	الإحالة في الأصل
أصل الخير والشر من قبل التفكر؛ فإن الفكر مبدأُ الإرادة والطلب والزهد والترك والحب والبغض. وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها؛ فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار. ويليها أربعةٌ: فكرٌ في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها. فعلىٰ هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.	١٤٦	٢٨٧
للعبد بين يدي الله موقفان: موقفٌ بين يديه في الصلاة، وموقفٌ بين يديه يوم لقائه. فمن قام بحق الموقف الأول هُوِّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يُوفِّه حقَّه شُدِّد عليه ذلك الموقف. قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٦ - ٢٧].	١٤٨- ١٤٩	٢٩١